قاسم أمين وأحداث عصره

دكتور عزت قرنى

أستاذ الفلسفة بجامعة الكويت

قاسم أمين وأحداث عصره

مقدمة:

هل قاسم أمين مؤرخ ؟ نجيب بإجابتين مرة بعد مرة: لا، بل نعم ! نقول لا، لأن القصد الكبير فى أهم كتاباته الفكرية أى تحرير المرأة (١٨٩٩ م) والمرأة الجديدة (١٩٠٠ م)، هو عرض رؤيته عن مستقبل المجتمع المصرى وعن الإنسان المصري، ولأنه لا يعود فى كتاباته إلى الوثائق الأصلية، ولأنه لا يتوقف أمام الاستيثاق من قيام الوقائع التاريخية، ما دامت قد أصبحت معروفة ومتفقاً على قيامها، بل يهتم بالربط بينها واستخراج دلالاتها، وذلك من أجل الإشارة إلى المستقبل والتدليل على موقف فكرى ما. ومع هذا، فإنه يمكننا أن نقول إن قاسم أمين «مؤرخ» بمعنى ما، أولاً، لأن طرائق الجمع والربط والتفسير التى يستخدمها باعتباره عالماً اجتماعياً فى دراسته للظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية بعامة تتقاطع، على الأقل، مع طرائق المؤرخ، بل وتتشابه معها كثيراً[١]. وثانياً، لأن عمل القاضى - وكان قاسم كما هو معروف قاضياً - يتطلب «الفصل» فى صحة الوقائع المنسوبة إلى أطراف النزاع القضائى المعين، إلى جوار تطبيق مع ما يتناسب مع الأفعال المجرمة من قواعد القوانين، كما يتطلب تحرى جوانب كل فعل وإجراء وواقعة من شتى النواحى، بما يخدم الإدعاء حيناً والدفاع حيناً آخر، وكل هذا يتقاطع مع الآخر مع عمل المؤرخ. وثالثاً، لأن كتابه الأول على الإطلاق، المعنون «المصريون» (بالفرنسية، ١٨٩٤ م)، لا يخلو فصل واحد منه من ذكر التاريخ المصرى الحديث منذ محمد على إلى سنة التأليف، وأحياناً ما يستشرف ما حدث عند اليونان والرومان، وفى العصر الإسلامى، وفى أوروبا فى قرون سابقة. نعم ، نستطيع أن نسمى قاسم أمين «مؤرخاً» بالمعنى العام للكلمة ، أى من يقوم بتسجيل الوقائع ويجمع بينها وينظمها ويفسرها وقد يحكم عليها. ولكننا نضيف الآن اعتباراً رابعاً ذا قوة، وهو أن قاسم أمين نفسه قد أراد لنفسه

أن يكون مؤرخاً، ولكن ليس للماضى بل للحاضر أو «الحال»: فلنقرأ باهتمام هذا النص العظيم، الذى لا يخرج إلا من ذهن فكر قادر عرف ودرس وفهم واستقصى واستخلص، وهو يأتى من تقديم سلسلة من المقالات نشرها قاسم أمين فى جريدة المؤيد القاهرية ما بين ١٨٩٥ و ١٨٩٨م بعنوان: «أسباب ونتائج» (ولنلاحظ مغزى محض هذا العنوان): «يشرح المؤرخ أطوار أمة فى زمن من عمرها، بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظامها وتربيتها ووسائل معيشتها وحالتيها الاقتصادية والسياسية، داخلاً وخارجاً، وما هى عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون، ويبين من خلال ذلك ما طرأ عليها من الحوادث المهمة... وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الإنسان الاجتماعى[٢]. وكما يفعل المؤرخ فى الماضى يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية فى الحال، فيدرسون زمانهم درساً تاماً، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم حتى يتبين لهم ما هو عليه بكيفية لا تقبل الشك. إن هذه الأمور إنما هى العلل التى أنتجت تلك الحالة، وإن تغييرها لا يكون بالصدفة، وإنما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة ، إذ السبب والمسبب دائماً متلازمان عقلاً، وعادة متى وجد أحدهما وجد الآخر حتما»[٣].

وقد سبق لنا، فى دراسة سابقة[٤]، أن دللنا على أن قاسم أمين هو المبادر لزرع عدد من «الحساسيات» الجديدة فى الذهن المصرى، ومنها العقلانية والمنهجية وإعلاء قيمة العمل وغيرها، ولكن منها على الخصوص ما سميناها هناك «بالحس التاريخى» حيث عرفنا بضده، وهو الحس اللاتاريخى، بل اللاحس بالتاريخ، فظهر أن «صاحب الحس التاريخى القوى يقف فى الجهة المقابلة، فله بالزمن ومروره إحساس حاد، يدرك التغير ويتوقعه على الدوام، ويقول بنسبية الحياة الإنسانية وما يصدر عن الإنسان بعامة، ويعلق نظره فى المحل الأول على المستقبل، ولكنه لا ينفى أهمية الماضى مدركاً أن الحاضر

ابن الماضي. من هذه الجهات كلها، كان قاسم أمين ذا حس تاريخى حاد، وقد انطبع كثير من مواقفه بهذه الحساسية الخاصة، ولا شك فى أنه واحد من أكبر من طبعوا الذهن المصرى الحديث بها»[٥] .

لهذا كله، كان لنا أن نتوقع اهتماما بارزا عند قاسم أمين بأحداث عصره ، وهو موضوعنا فى هذه الدراسة[٦] ، التى هي، كما هو مفهوم، دراسة فى تاريخ الفكر وليست فى تاريخ السياسة أو غيرها، وأنها دراسة علمية، وبالتالى نقدية ومحايدة، وليس من أهدافها التمجيد أو العكس ، وتتوقف عند أحداث مصر وحدها اعتبارا لحجم الدراسة، كما تهتم بكتابات قاسم أمين ما بين ١٨٩٤ و ١٩٠٠ م، فيما عدا ما نشر فور وفاته من مذكرات خاصة كان يكتبها لنفسه، تحت عنوان «كلمات» (١٩٠٨ م). ونشير فى هذا المقام إلى أهمية أن يتوفر بعض الباحثين، ويفضل منهم من له ثقافة قانونية وثيقة، على نشر أقضيته ، أى أحكامه القضائية فى خلال عمله كقاض، وذلك على نحو شامل، وقد ظهر بعض منها جزئياً فى بعض المؤلفات عنه، حيث ستساعد دراسة هذا الإنتاج القضائى منظوراً إليه ككل فى تحديد مواقف قاسم أمين واستكمال معرفتنا بها على حد سواء (ولا ننسى فى هذا المقام أن نذكر أنه هو من شاءت المصادفات أن يكون وكيل النيابة الذى حقق مع عظيم الوطنية المصرية عبد الله النديم حيث كُشف مخبأه فى أكتوبر ١٨٩١ م وأكرمه فى سجنه).

أولا : مصر وتاريخها

أ - مصر، ما هى ؟

إن قاسم أمين مفكر اجتماعى فى المحل الأول، ولهذا فإنه من الطبيعى أن تبرز مصر عنده أول ما تبرز عنصرا سكانيا معينا، أى جماعة بشرية معينة هى عنده الذات الجماعية التى يعبر عنها ضمير «نحن»، وهى «الأهل»، أى أهلنا[٧]،وفى نهاية الصفحة الثالثة من مقدمه «تحرير المرآة» يلقى قاسم أمين

بالكلمة الكبرى بين أسماء مصر: «أمتنا»، فيكون قد استخدم اصطلاح «الأمة» فى تلك الصفحات الثلاث وحدها ست مرات وكلمة «الأمم» مرة واحدة. مصر، إذن، أمة، هى الأمة المصرية[٨]. وسوف يستخدم قاسم أمين هذا المصطلح باطراد إما فى «تحرير المرأة»[٩] ، أو فى «المرأة الجديدة» حيث يقول مثلا: «إذا كان الإقليم لم يعق الأمة المصرية عن إتيانها بأعظم الأعمال، ولا عن تأسيس الشرائع وابتكار العلوم والفنون، فلماذا يصير مانعاً لها من الترقى فى هذه الأيام... ؟»[١٠] ، كما استخدمه قبلهما فى «المصريون»[١١]. ولكن قاسم أمين يعرف أيضا اصطلاح «الشعب»، واصطلاح «الوطن»[١٢]. فضلا عن كون مصر «بلدا» من البلاد، أو «إقليما» من الأقاليم[١٣] . ولكن مصر تظهر فوق كل ما سبق باعتبارها «مصر»، وهو ما يبرز واضحا منذ أول كتب قاسم أمين: «المصريون»، وفى خلال بعض سطوره تلوح مصر وكأنها على هيئة «ذات» عنده[١٤] ، فى مقابل ما كان جمال الدين الأفغانى مثلاً يزاها عليه: أنها مجرد «أرض» مصر،خاصة وأن قاسم أمين فى ذلك الكتاب يبدو من أوائل من تشوفوا فكرة «بعث مصر»، أو إحيائها أو تجددها أو تجديد قواها، وهى فكرة أقوى من فكرة «نهضة مصر»[١٥]، وهو ما يفترض كون مصر ذاتا[١٦].

ب- امتدادات كيان «مصر» ووعى قاسم أمين بها:

إذا كان قاسم أمين ، فى كتاباته المختلفة، يشير أحيانا إلى مصر القديمة[١٧]، إلا أنه من الواضح أن معرفته بها معرفة سطحية جدا[١٨]. ولهذا يلجأ إلى العموميات وإلى التقديرات العائمة، كأن يأسف فى «المصريون» لتدمير آثار مصر القديمة، بمناسبة نفيه مسئولية عمرو بن العاص عن حريق مكتبة الإسكندرية[١٩]. أو أن يشير إلى تفضيل الأوربيين للمصريين القدماء على أولئك المحدثين[٢٠]. أو أن يستخدم تعبيرات من قبيل «تاريخ مصر»[٢١]. أما حين يتحدث عن «الاختبار التاريخى» فى شأن التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وبالعكس [٢٢]، أو عن «المرأة فى حكم التاريخ»، وهو عنوان الفصل الأول

من كتاب «المرأة الجديدة» [٢٣]. أو عن «أربعة أدوار من تاريخ التمدن فى العالم»[٢٤] ، أو عن تتبع سلسلة التاريخ فى جميع الأزمان[٢٥] ، فإننا نجده لا يذكر أى شىء عن التاريخ المصرى القديم، بل هو يبدأ فى العادة من اليونان[٢٦]. وفيما يخص مصر القبطية، فإنه لا يوفها هى الأخرى، وفى المقابل، وفيما يخص الأقباط من المصريين فإنه فى «المصريون» يضع فى وضوح وحسم غير مسبوقين وقائع التاريخ ومبادئ الموقف الوطنى المصرى المستنير معا حين يقول إجابة على التساؤل الذى يفتتح به فصل «المجتمع المصرى» فى ذلك الكتاب «ما العناصر التى يتألف منها المجتمع المصرى فى الوقت الحالى ؟»[٢٧]. يقول ما ترجمته «هناك أولا المصريون الحقيقيون ، المسلمون والأقباط، وهم اللذين يكونون الغالبية العظمى من السكان وإنى اسمينهم المصريين الحقيقيين لأنهم اليوم ينتمون إلى نفس العرق، ذلك أنه من المؤكد إن المصريين المسلمين الذين يراهم المرء فى المدن، وبخاصة فى الأرياف، لا ينزلون على الإطلاق من العرب وليسوا عربا، اللهم إلا باللغة والدين، وليس على المرء إلا أن ينظر إليهم لكى يتأكد بنفسه أن لهم نفس الهيئة الجسمية (type) التى للأقباط ، وعلى ذلك، فإنى أعتقد، ويظهر أن الملاحظة تؤيد ما أعتقد، إن المسلمين المصريين ما هم إلا أقباط تحولوا إلى الدين الإسلامي»[٢٨] .

أما عن مصر الإسلامية، فإنه يبق فى شأنها هى الأخرى فى إطار التعميمات وتقرير الأوضاع الاجتماعية العامة، وحين يبدأ فى «المصريون» فصل «الحكومة»، نجده يمر سريعا «على تلك الفترة الزمنية الطويلة والمحزنة ، والتى تقع ما بين الوضع المضيء لمصر تحت حكم العرب وعصر النهضة الذى افتتحه محمد على» [٢٩]. ولعله يقصد بتلك الفترة المحزنة على الخصوص حكم المماليك ثم الأتراك العثمانيين، وهو لا يذكر هؤلاء الأخيرين ، وأفراد الشعوب المحيطة بهم والذين جاءوا بهم إلى مصر، إلا بكل انتقاد وهجوم. ومما يجذب النظر إليه التفسير السياسى والاقتصادى الذى يقدمه قاسم أمين للفتوحات

الإسلامية مع مقارنتها بدوافع السيطرة الأوروبية على بلاد الشرق فى عصره : «كان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وأصحابه كلهم يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا فى آن واحد . وصرحت السنة كما أجمعت عليه الأئمة بأن لا قوام للدين إلا بسلطة تحفظه ، فلم يمض إلا قرن واحد من عهد ظهور الإسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم. ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة إكراه الناس على الأخذ بهذا الدين، وإنما كانوا يفتحون البلاد دفاعا عن الحوز وتوسيعا لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة ، وهو المقصد الذى يعمل له الأورباويون فى بلاد الشرق الآن»[٣٠]. وإذا كان قاسم أمين لا يكاد يذكر شيئا عن تاريخ مصر الإسلامية فإنه، بالمقابل ، كثير الحديث عن «التمدن الإسلامى» بعامة ، ويهمنا هنا أن نثبت له نصا أساسيا وجامعا وحيد السبك فى نفس الوقت عن نظم الحكم الإسلامية على وجه التعميم يصفها فيه «بالاستبداد المطلق» :

«تجردت الجمعيات الإسلامية على اختلاف الأزمان والمكان من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما فكان لسلطانهم وأعوانه سلطة مطلقة، فحكموا كيف شاؤا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة ، وأداروا مصالح الرعية بدون أن يكون لهم صوت فيها. نعم كان الحاكم صغيرا أو كبيرا ملزما بإتباع العدل واجتناب الظلم، لكن من المجرب أن السلطة غير المحدودة تغرى بسوء الاستعمال إذا لم تجد حدا تقف أمامه ورأيا يناقشها وهيئة تراقبها، ولهذا مضت القرون على الأمم الإسلامية وهى تحت حكم الاستبداد المطلق ، وأساء حكامها فى التصرف وبالغوا فى اتباع أهوائهم واللعب بشئون الرعية ، بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ولا يستثنى منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبهم . إذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف أثره فى الأنفس عن ما هو فى

نفس الحاكم الأعلى ، ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم إلى من دونهم، وينفث روحه فى كل قوي بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه. يسرى ذلك فى النفوس رضى الحاكم الأعلى أو لم يرض»[٣١].

ثانياً : مصر فى عصرها الحديث

أحياناً ما يتحدث قاسم أمين عن الفترة الممتدة منذ عصر محمد على حتى عصره جملة واحدة[٣٢] ، ولكن الغالب عنده هو أن يتحدث عما قبل الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢م وعما بعده (إلى عصر كتاباته ما بين ١٨٩٤ و ١٩٠٠ م على الخصوص)، وبينما هو يسمى الفترة الأخيرة بأسماء منها «العصر الجديد»[٣٣]، و«هذا العصر»[٣٤]، فضلاً عن تعبير «اليوم»[٣٥] ، ويقول عنها إنها «أهم دور من تاريخ الأمة المصرية»[٣٦] ، فإنه لا يسمى فترة محمد على وخلفائه معا حتى الاحتلال البريطانى باسم معين ، وإنما يقول تعميماً «سابقاً»، أو «منذ كذا من السنين»[٣٧]، أو تحديداً «منذ محمد على»[٣٨] ، كما رأينا منذ سطور. ونلاحظ هنا على الفور أن فترة الحملة الفرنسية على مصر تكاد تكون غائبة تماماً فى كتابات قاسم أمين[٣٩]، كما أن كتاباته المنشورة إبان حياته، وعلى الخصوص كتبه الثلاث، «المصريون» و «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة»، لا تسمى الحضور الإنجليزى فى مصر باسم الاحتلال، اللهم إلا نادراً كما فى مقاله عن «الموظف السياسى» فى «المؤيد»، والذى جمع من بعد فى «أسباب ونتائج» و«أخلاق ومواعظ» [٤٠]. وسنعود إلى فترة الاحتلال بعد قليل.

وتتأرجح لهجة قاسم أمين، عند حديثة عن عهود محمد على وعباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق ما بين عدم الإدانة عند ذكرهم بالاسم[٤١] ، ومع الانطلاق تكراراً فى مديح التجديدات المتنوعة التى جاء بها محمد على بصفة خاصة[٤٢] ، وأحياناً إسماعيل وتوفيق قبل الاحتلال [٤٣]، والهمز واللمز فى شأنهم جميعا ، بل وإدانة فترات حكمهم بالاستبداد وسوء الإدارة بأشكاله حينما

لا يذكر أحداً منهم بالاسم[٤٤]، متحدثاً عما «سبق» من الأعصر الأخيرة بصفة عامة[٤٥]. ولعل أهم نص جامع يظهر فيه قاسم أمين «مؤرخاً» قصداً للتاريخ المصرى منذ محمد على حتى بداية الاحتلال، هو هذا النص المهم من فصل «الحكومة» فى كتاب «المصريون»، والذى يبين فيه أنه مع حكم محمد علي أخذت السلطة تعتدل وتنتظم، وتفتح المدارس، وتجند الجنود للجيوش، وتنشأ الأساطيل، وتتفتح التجارة والصناعة والزراعة على حياة جديدة وتأخذ فى النمو، كما حفرت القنوات، وعبدت الطرق. «وفى كلمة واحدة، فإن حكومة حقيقية تأخذ فى الانتظام، ومن المفهوم أن ترتكب، من وقت لآخر، بعض أعمال القسوة وبعض الاغتصابات، ولكن من السهل أن يغفر المرء لمحمد على، وذلك أن شأنه شأن الأب شديد القسوة ، والذى لا يفرق بين سوء المعاملة والتهذيب لأبنائه، لكن المصريين حققوا فى خلال عهده الطويل تقدماً عظيماً فى كثير من الميادين». غير أن قاسم أمين يميز بين حكمه وحكم خلفائه، الذين «لم ينشئوا شيئاً، بل ولم يعرفوا كيف يحافظون على ما فعله أبوهم»، لأن حكمهم ما كان لهم إلا فرصة لممارسة إرادتهم الاستبدادية المنفردة . ويرى قاسم أمين أن التاريخ سوف يحكم عليهم حكماً قاسياً، وبخاصة على إسماعيل وإن كان يحمد له، بالرغم من انفاقاته المسرفة من المال العام، أنه نشر التعليم وأنشأ طرقا مائية عظيمة وجمل عدداً من المدن المصرية كذلك، ولكن بالقرب من نهاية حكمه وحسب، صدر فى عام ١٨٧٩ م مرسوم خديوى بسلطات واسعة لمجلس الوزراء الذى صار هو المسئول عن مصالح البلاد. وكان إسماعيل نفسه قد أنشأ، فى عام ١٨٦٦ م، مجلساً تشريعياً ومجالس للمديريات، بحيث أن هذه العناصر وغيرها هيأت لعهد توفيق، الذى يصفه قاسم أمين بأنه «حكم يكاد أن يكون دستورياً»، ويعدد إنجازاته فى بدايته، وإن كان يعد منها إنشاء المراقبة الثنائية وإنشاء صندوق الدين العام، ويرى أن «الجميع» كانوا سعداء، ولكن بدون أن يحدد مراحل التدخل الأجنبى الذى أصبح سافراً للغاية. ويرى أن «الجميع» كانوا

يرون المستقبل مليئا بالوعود «عندما ظهر عرابى فجأة على المسرح السياسى، فأوقف هذه الحركة الرائعة لنحو عامين»، هذان العامان اللذان يسميهما قاسم أمين «بالعامين النحسيين»، وسنعود إليهما بعد قليل، ينتهيان «باستعادة النظام»، وهى التسمية المتأنقة التى يعطيها للاحتلال البريطانى ، ويأخذ فى تعداد إنجازات الإنجليز على نغمة التأييد والتمجيد(٤٦).

ثالثاً : الاحتلال البريطانى والعدل الإنجليزى

وتنقلنا هذه السطور الأخيرة إلى عصر الاحتلال البريطانى، الذى قلنا إن قاسم أمين لا يسميه بهذا الاسم فى كتبه الثلاثة المنشورة فى حياته، بل يقتصر على وصفه بهذا العصر أو «بالعصر الجديد» وما شابه ذلك من تسميات عائمة.

وفيما يخص مقدمات الاحتلال، فقد رأينا فى النص الجامع الذى أشرنا إليه للتو من كتاب «المصريون» (٤٧) ، أنه لا يدين الخديو توفيق بشىء، وإنما يحمل عرابى الذى ظهر فجأة - كما يقول قاسم أمين - على المسرح السياسي، كل المسئولية حيث إنه بتمرده يقطع، وعبر عامين، ولابد أنه يقصد فترة ١٨٨٠-١٨٨٢م ، وربما بدءاً من رفعه عريضة ٢٠ مايو ١٨٨٠ م إلى عريضة ١٥ يناير ١٨٨١ م ومظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ م وانتخاب مجلس النواب وما تلى ذلك من أحداث حتى هزيمة التل الكبير فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ م ، نقول: يقطع حركة «الإصلاحات الكبرى» التى أشار إليها النص تحديداً وتفصيلاً، والتى يقف بمناسبة ذكرها موقفاً إيجابياً من «المراقبة الثنائية» ومن «صندوق الدين العام» ، بينما لا يشير أى إشارة إلى التحرك القوى للرأى العام المصرى ولقادته منذ ١٨٧٨ م، والذى هيأ فى الواقع لظهور حركة الجيش بقيادة أحمد عرابي. ولكننا نلاحظ أن قاسم أمين هنا ، وفى نفس الوقت الذى يجامل الخديو توفيق والقوى الأوربية الطامعة فى مصر قبل قدوم الإنجليز ، فإنه يقدم تفسيراً طريفاً لما يلمح إليه باعتباره «تمرداً» أو «عصياناً» من جانب عرابى ، الذى ننتبه إلى أنه

يذكره هنا وحده بدون إشارة لا إلى صحبه ولا إلى الجيش المصرى بعامة[٤٨]. ومدار هذا التفسير النفسى أن بداية عصر توفيق كانت بداية مشجعة للمصريين كثيراً ، وهم الذين يصفهم قاسم أمين فى نصنا الذى نحن بصدده الآن ، «بالشعب المقهور لأزمنة طويلة»، ولكنهم لم يصبروا كثيراً ، واندفعوا من أجل «الخلاص التام» (هكذا بعبارة قاسم أمين ، ونفهم أن المقصود هو الخلاص التام من السلطة المستبدة القاهرة الظالمة المتمثلة فى توفيق والعائلة العلوية والعثمانيين جميعاً) . فما معنى تقديم هذا «التفسير» الذى يرتفع إلى مستوى «التبرير» (بالمعنى الحالى لهذه الكلمة، أى تقديم أسباب للدفاع عن موقف ما) ؟ إن معناه عندنا أن قاسم أمين له حول مشكلات العصر وأحداثه وعوامله وأشخاصه أكثر من موقف ، أو أنه يرى فى الأمر حيناً ما هو إيجابى فيه ، وحيناً آخر ما هو سلبى ، وهو الاتجاه الذى رأينا تطبيقه فى حالة أحكامه على حكام الأسرة العلوية منذ صفحات ، كما سنرى تطبيقه أيضاً عند كلامه عن علاقة أوروبا بمصر ، وعن أحمد عرابى الذى نعود إليه على الفور .

ولكن هذا التفسير النفسى لحركة عرابى لا يستطيع أن يخفى على من يجيد القراءة ، ويعرف قراءة ما بين السطور ، شيئاً من التأييد وأشياءً من التعاطف من جانب قاسم أمين مع تلك الحركة ، بالرغم من عدم التصريح بها جهاراً ، بل يذهب الكلام ظاهرياً فى غير اتجاههما . ولعل تأويلنا هذا أن يلقى تأييدا من أحد نصوص نفس كتابه «المصريون»، ومن الفصل المعنون «المجتمع المصرى»، وفى أثناء حديث قاسم أمين ، الذى ألمحنا إليه من قبل ، حول وحدة التكوين السكانى للشعب المصرى بالرغم من وجود من يدين بالإسلام ومن يدين بالقبطية ، فيقول عن المصريين المسلمين والأقباط معاً فى خلال ما يسميه هنا نصاً «بثورة عرابى»[٤٩]: «فى خلال فترة ثورة عرابى مشى الأقباط والمسلمون يداً بيد، ولم يوجد فيها مسلم واحد تبادر إلى فكره أن يسبب إقلاقا لقبطى ، هذا فى حين أنه كان يصرح على الملأ أن الأتراك والشركس هم أعداء

مصر»[٥٠]، (والمقصود أن الحال كان كذلك بينما هؤلاء الأخيرون مسلمون)[٥١]. إن أهمية هذا النص أنه ينسب «ثورة عرابى» ليس إليه وحده ، بل إلى سائر المصريين من مسلمين وأقباط ، بل وإلى مصر ذاتها المذكورة فى أخر النص ، حيث يظهر الشعب المصرى «متحداً» حول ذلك الأمر [٥٢]. ومن المعلوم أن قاسم أمين ولد عام ١٨٦٣ م ، وليس ١٨٦٥ م كما يذكر جورجى زيدان ، ولذلك فإنه كان مدركاً وشاهد عيان لما كان يدور فى عصر ما بين ١٨٧٨ م و ١٨٨٢ م ، خاصة وأنه دخل مدرسة الحقوق بالقاهرة فى أواخر تلك الفترة (ونقترح أن نسمى تلك الفترة «عصر محاولة الوثبة»، حيث تصف الكلمتان الأخيرتان جماع سمات ذلك العصر بدقة) .

والآن ، كيف انتهت ثورة عرابى ؟ انتهت بالهزيمة المصرية أمام الجيش الإنجليزى، ولكن قاسم أمين، لا يتعرض للأمر بأية تفاصيل كانت، يسمى هذه الهزيمة، فى الفصل المعنون «القيمة العسكرية للمصريين» ، «بالانتصار السهل للإنجليز» ، ويكرر هذا التعبير مرتين فى نفس الصفحة[٥٣] ، ثم يسارع ليقول مفسراً للانتصار والهزيمة معاً : «إن الجميع يعرفون الانتصار السهل للإنجليز... بل ربما قلت إن الجميع كانوا يتوقعونه ، ولكن ليس ... لأن الجيش المصرى لم يكن جيشاً حقيقياً ذا شأن، ولا لأن جنوده ، كما يظن الدوق داركور، لم يريدوا دخول المعركة ، وإنما بسبب أن قادة الجيش انقسموا إلى فريقين : فريق مع عرابى وفريق مع الخديوى، وكان الضباط من هذا الفريق الأخير يرسلون يومياً إلى الخديوى - مصحوباً بتأكيدهم بالولاء له - كل الخطط ما أن تعد وكل القرارات ما أن تتخذ . وقد تفاقم هذا الانقسام أكثر وأكثر حين قام صاحب الجلالة السلطان بإعلان عرابى متمردا . وهل يجهل سائر المصريين من هو الضابط الكبير الذى هيأ لاندحار الجيش المصرى فى معركة التل الكبير، والذى تفاخر على الملأ بذلك تحت دعوى واجبه بإزاء الخديوى؟»[٥٤]. فى هذا النص المهم ، والذى جاء فى مكانه فى إطار حديث قاسم أمين عن القيمة

العالية للجيش المصرى وبسالته فى عصره الحديث بوجه عام ، يقدم قاسم أمين تفسيراً «موضوعيا» للهزيمة العرابية، ولا يتهم أحمد عرابى نفسه بشىء، بل يشير إلى ثلاثة عوامل أو أربعة تفسر الانتصار الإنجليزى السهل : الأول هو عدم تساوى القوة بين الإنجليز والمصريين ، وهو ما تدل عليه عندنا عبارة : «ربما قلت إن الجميع كانوا يتوقعونه»، والثانى هو إعلان السلطان عبد الحميد ثورة عرابى حركة تمرد، والثالث هو انقسام قادة الجيش، والرابع هو خيانة بعضهم بانحيازه إلى جانب الخديوى. ولا يستطيع قارئ هذه السطور إلا أن يلاحظ تعاطفاً خفياً مع عرابى ومع الجيش، وربطاً واضحاً بين الخديوى والخيانة، وتنديداً صريحاً بالضابط الخائن، على نحو ما يتضح من ألفاظ العبارة الأخيرة فى النص. أخيراً وليس آخراً ، فإن علينا ألا نمر متسرعين أمام مغزى تكرار عبارة «الانتصار السهل» مرتين ، ففيه من غير شك غمز ولمز فى الإنجليز ، فضلاً عن دفاع ممكن عن الجيش وعرابى .

وعلى أية حال ، فإن التسمية الاصطلاحية التى يطلقها قاسم أمين على السيطرة البريطانية فى مصر على أثر ذلك الانتصار السهل هى «استعادة النظام فى مصر»(٥٥). «ويكرر قاسم أمين فى أماكن مختلفة من سائر كتاباته على التقريب نتائج عهد الاحتلال أو «استعادة النظام» هذا ، وهذه هى أبرز نصوصه فى هذا الصدد :

١- « .... ولنعد إلى استعادة النظام فى مصر . إن سلسلة الإصلاحات السابقة تبدأ من جديد ، والتقدم متواصل على نحو مستمر إلى أيامنا هذه . ويتم العمل الآن فى أعمال ضخمة للرى ويحضر لأعمال أخرى ، كما تنشأ الطرق الحديدية ومكاتب البريد والتلغراف فى كل مكان . وتتم فى الوقت الحالى دراسة تعديل الوعاء الضريبى . وأصبح نافذاً حرمة المساكن واحترام حياة الإنسان واحترام الملكية الخاصة ، بينما ألغيت السخرة تماماً ، وحرية التفكير

والكتابة كاملة ، أما كل ما يحتويه إعلان «حقوق الإنسان» المشهور ، فإن المصرى اليوم يتمتع به . وإنى لأضع فى قمة كل ما سبق الإصلاح القضائى الذى أثمر نتائج كبيرة للغاية ... وفى الحقيقة ، فإن لدينا ، اليوم ، حكومة محترمة ، أمينة ، وأبوية . وإنى لأتحدى أياً من كان أن يذكر لى ، وفى خلال مدة ما يقرب من الخمسة عشر عاماً السابقة ، ليس فعلاً تعسفياً واحداً ، بل حتى فعلاً من أفعال الابتزاز قام بها أحد الموظفين مما قد تتهم به حكومتنا . إن آخر خديويين لنا ، توفيق وعباس ، يمثلان النموذج التام للعاهل الدستورى ... إن كل شئ أصبح تحت حكم القانون ...وكل هذه الإصلاحات تمت بلا جلبة ولا ضوضاء»[٥٦]. وبعد أن يقدم اقتراحين بإعادة تنظيم إدارة المديريات وإنشاء مجلس ممثل للأمة معا، يقول قاسم أمين : « وفيما عدا هذين الإصلاحين فإنه يكون لدينا كل ما يجب من أجل تكوين تنظيم إدارى صالح»[٥٧].

٢- «إن مصر ، فى الوقت الحالى الذى أكتب فيه هذه السطور ، قد دخلت بالفعل إلى طريق التمدن ، أو قل ، وهو نفس الشيء إنها قد خرجت الآن من وضع السكون»[٥٨].

٣- «إن طبيعة العصر الذى نحن فيه منافرة للاستبداد ، معادية للاستعباد»[٥٩].

٤- «نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن أن مصر رأت ما يماثلها فى أى زمن من أزمانها» [٦٠].

٥ - «الحقيقة المجردة من الأوهام والأغراض أن كل ما وجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبى وعلى رغم أهلها»[٦١] .

٦- «فى عهد الاستبداد ، فى الوقت الذى كانت فيه كلمة من محمد على أو

إسماعيل تكفى لإعدام من يغضب عليه ... فى تلك الأيام السوداء ، التى كانت فيها حياة الإنسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر[٦٢]، لم يكن لأحد مهماً كان مقامه فى الوجود ضمانة تحميه ، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما يدفعهم إلى صد إرادة الحاكم والتصريح بآرائهم» [٦٣] .

٧- «مع إن الاستبداد السياسى أصبح الآن فى حالة النزع ، وأشرف على الفوات بحيث لا ترجى له عودة ، لا يزال الرجال عندنا يستبدون على نسائهم»[٦٤].

٨- «الآن ، فنحن فى عصر أمن الناس فيه بعضهم بعضاً ، واستقر النظام فيهم» [٦٥].

٩- « هذه الأيام ... يعدها بعضهم عصراً جديدا لتقدم المصريين»[٦٦] .

ومن الواضح أن هذه التقريرات إنما تعرض لوجهة النظر الإنجليزية فى أفضال الاحتلال على المصريين[٦٧]. من جهة أخرى ، فإن قاسم أمين لا يتعرض بكلمة واحدة ، فى كتاباته التى يقع معظمها ما بين ١٨٩٤ و ١٩٠٠ م لمطلب إنهاء الاحتلال والجلاء . وإذا أردنا محاولة فهم مواقفه تلك ، فربما يأتى على الخاطر ما يلى :

١- قاسم أمين قاض ، فهو موظف فى الحكومة بعد كل شئ ، والرؤساء الفعليون هم الإنجليز من خلال من والاهم .

٢- القاضى فى تفكيره يهتم بعنصر المشروعية ، وينطلق من قواعد القانون الذى تمليه السلطة القائمة ، حتى ولو كانت تقوم على أساس القوة لا على أساس الشرعية ، وقد رضخ الخديو عباس الثانى ، صاحب السلطة الشرعية ، وإن كانت اسمية ، لسلطة اللورد كرومر التى تعتمد على جيش الاحتلال ، بعد تجارب فاشلة من جانبه فى خلال عامى ١٨٩٣ و ١٨٩٤ م ، وهذه

السنة الأخيرة هى سنة كتابة كتاب «المصريون» لقاسم أمين . وهكذا فلربما فكر هذا الأخير على النحو التالى : إن الخديوى نفسه على وفاق مع المعتمد البريطانى ، فلنستنتج نتائج هذا الوضع .

٣ - ولكن لعل أهم اعتبار تذرع به قاسم أمين فى تعداده لأفضال الاحتلال، هو ما نجده عند كل أصدقائه من أعضاء الحزب الذى سوف يرفع راية «الحرية» ويهتم بمناهضة سلطة الخديوى التى تميل بطبيعتها إلى الاستبداد والاستعباد، ومنهم صديقه الأصغر أحمد لطفى السيد دائما ، وصديقه الأكبر سعد زغلول، حتى إعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ م على الأقل، وكذلك الشيخ محمد عبده فى أوقاته وعلى طريقته ، نقول إن هذا الاعتبار ربما يظهر فى تعبير فرنسى لعله كان مستعملاً فى عصر قاسم أمين ومداره صعوبة الاختيار بين «الطاعون والكوليرا»، فكلاهما شران مستطيران ، ولكن عليك الرضا بأهونهما ، ونظن أن حساب قاسم أمين وأصدقائه كان الرضا بالاحتلال، لأن الخطر الأعظم كان فى نظرهم سلطة الخديوي[٦٨]. (وعلى خلاف هذا كان حساب مصطفى كامل والحزب الوطنى الذى سيؤسسه)[٦٩].

ولننظر الآن فى بعض تفاصيل نظرة قاسم أمين إلى الإنجليز وإلى سلطتهم «الفعلية»[٧٠] ، وإلى خصائصهم وأعمالهم ونتائج سياساتهم فى مصر منذ «استعادة النظام» فيها وبدء الاحتلال فى منتصف عام ١٨٨٢ م .

يعلن قاسم أمين صراحة فى خاتمة كتاب «المصريون» أن إنجلترا هى «السيدة الفعلية على مصر» [٧٠] ، أى صاحبة السلطة الحقيقية ، وإن مصر لا تستطيع بنفسها أن تدافع عن سيرها «إن إنجلترا اليوم هى السيدة الفعلية على مصر[٧١]، التى لم تبلغ بعد قدرا كافيا لا من القوة ولا من الوعى تستطيع معه أن تدافع عن نفسها فى مواجهة الاعتداءات التى قد تأتيها من جهة أو أخرى ، والتى قد تعوق حركتها نحو التقدم»[٧٢]، ثم يضيف على الفور :«وحيث إن إنجلترا

هى التى بيدها مصير مصر ، فإنها ، إذن ، من ينبغى أن يعد مسئولا عن مستقبلها»[٧٣] .

ولا يذكر قاسم أمين اللورد كرومر إلا بالتبجيل ، وها هو فى فصل «العلوم والآداب» من «المصريون» يشكره على انتقاداته ذاتها للمصريين وعلى إظهاره لنقائصهم فى تقاريره السنوية إلى الحكومة :«أن يزن المرء ما هو مقبل على قوله ، وألا يقول غير الحقيقة ولا شى غير الحقيقة : هذا هو واجب الكاتب ، بل وواجب المواطن الصالح . فانظروا إلى ما كتبه عنا الإنجليز : إن كل ما كتبوه عن مصر ، بما فى ذلك تقارير اللورد كرومر المحترم السنوية إلى حكومته ، تحتوى من غير شك على أحكام قاسية ، ولكنها تحتوى أيضا وفى نفس الوقت على اعتراف صحيح بتقدم أنجز وبمستقبل ممكن أفضل ، وهذا بالرغم من كثرة الأسباب التى تدعوهم إلى أن يكونوا أقل حياداً ونزاهة . ولا يمكن لنا إلا أن نكون معترفين بالجميل بإزاء كل هؤلاء الذين يوجهون إلينا تنبيهات وتحذيرات نافعة ، فنحن نحب أن يظهر الآخرون لنا نقائصنا ، إن الأجنبى الذى ينتقدنا بأشد القسوة ، ولكن من أجل مصلحتنا ، لهو صديق دائما»[٧٤] .

وإلى جوار كرومر ، فهناك اللورد دوفرين صاحب التقرير المشهور لعام ١٨٨٣ م ، الذى يثبت قاسم أمين بعض كلامه[٧٥]، ليعلن رضاءه عن ذلك التقرير ويمتدحه ويفتخر بتحقيق مقترحاته : «والآن، وقد انقضت أعوام عشرة اليوم منذ أن حرر اللورد دوفرين المحترم تقريره ، فإنه ليس من المغالاة فى شيء أن نقرر أن كلماته ، التى أملتها عليه مشاعر عظيمة النبل ، قد تحققت فعلا نقطة بنقطة» .[٧٦] .

إن التقدم الذى بدأ مع ١٨٨٣ م مستمر حتى ١٨٩٤ م وحتى ١٩٠٠ م، ونتيجته هى «اعتدال السلطة الحاكمة» [٧٧]، وبينما كانت «السلطة العمومية» بغير احترام عند المصريين، «إذ فى الماضى كان المصريون يخشونها ويرهبونها

أشد الرهبة [٧٨]، حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة. واليوم ... اعتدل مبدأ السلطة»[٧٩]. ويعتمد قاسم أمين على ما يسميه «أمانة بريطانيا العظمى»[٨٠] فى أمله ألا تسقط مصر مرة أخرى فى حكم الاستبداد ، أى أن الحضور الإنجليزى هو العائق الفعلى ضد أساليب حكم الأسرة العلوية المعهودة، وفى هذا وضع صريح لسياسة الاستعانة بقوة الإنجليز فى مواجهة السلطة الشرعية رسميا والتى تميل إلى الاستبداد ما أن تظهر أمامها أية فرصة كانت . وتكتمل الإشادة «بأمانة» بريطانيا العظمى بإشادة قاسم أمين إلى «الرسالة التمدينية التى كان لإنجلترا الشرف والفضل أن قامت بتحقيقها فى العالم» [٨١]، (عندما ألغت نظام العبودية فى البلاد التى دخلتها) .

ويفصل قاسم أمين كثيراً ، وفى كتاباته المتنوعة ، ما كان يجمله تكرارا تحت أسماء العدل والأمن والنظام والحرية التى تحققت بفضل الاحتلال ، وهو يفعل ذلك فى العادة على خلفية الإشارة إلى مساوئ العهود السابقة وأفضال ما تم على خلاف ذلك . لقد كان «الشعب مقهوراً لمدة طويلة»[٨٢] ، وفى أثنائها «أساءت السلطة استغلال الشعب المصرى على نحو فظيع »[٨٣]، «أما اليوم فإن حرمة المساكن محترمة هى وقاعدة احترام حياة الإنسان وملكيته ، كما ألغيت السخرة تماما ، وأصبحت حريتا التفكير والكتابة كاملتين ، ككل ما يحتويه الإعلان الفرنسى الشهير عن حقوقه الإنسان»[٨٤]. «وبينما كان المصرى فى عهد محمد على يجد أن كل ما كان يفعله حاكمه الطاغية مشروعا ، فإن المصرى اليوم يدرك إدراكا تاما ما هى حقوقه»[٨٥]. ولكن قاسم أمين يعدل بعض الشيء من تقريراته المطلقة هذه حين يقول : «أما اليوم ، ومنذ إنشاء المحاكم الجديدة، فإن الفلاح يبدأ فى الوعى بحقوقه ، وهو يحس بأنه محمى بالقانون وبقضاة نز هاء»[٨٦]. ويهتم قاسم أمين بالأمن والنظام اهتماما خاصا، وعادة ما يقترن ذكرهما معا [٨٧]، كما يعود تكراراً إلى إلغاء عقوبة الضرب بالكرباج [٨٨]. أخيرا فإن إشاراته إلى الحرية بعد الاحتلال أكثر من أن ينص عليها جميعا .

ويجد قاسم أمين أن السياسة والإدارة والقضاء أمورا مترابطة بالطبيعة[٨٩]، تماما كما أن الحرية والنظام والعدل مترابطة هى الأخرى[٩٠] ، ولذلك فإنه يهتم بالإصلاحات القضائية تحت تأثير تقرير دوفرين[٩١] ، وبإصلاح الإدارة ، من حيث الإجراءات ومن حيث أشخاص المديرين معا[٩٢] ، كما يهتم بأحوال الفلاح على الخصوص[٩٣]، فيقول بأنه حدث فيها فى الفترة التى نحن بصددها «تحول بل ثورة»[٩٤] ، ويخص مسألة الضرائب بالذكر مراراً[٩٥]، ويؤكد على تحصيلها بغير عنف[٩٦]، وبعدم المساس بجسم الفلاح ، وإذا لم يدفعها فلا تتبع معه إلا الإجراءات القانونية ، بعد إلغاء السخرة [٩٧] ، كما وزع تحصيل الضرائب على أربعة فترات كل عام[٩٨].

ونعود إلى التنظيم السياسى لمصر بعد الاحتلال ، والذى كانت مقدمته هى تقرير دوفرين ، فنجد قاسم أمين يمتدح سلوك توفيق وابنه عباس فى هذه الفترة : «إن آخر خديويين على مصر ، توفيق وعباس ، يمثلان النموذج التام للحاكم الدستورى »[٩٩] ، وهذا هو ما يعنيه بما مر علينا من حديث عن «اعتدال مبدأ السلطة». كذلك فإنه يمتدح مجلس شورى القوانين (الذى أنشأ فى مايو ١٨٨٣ م) ويقول «إنه اكتسب اليوم ثقة عظيمة لا ينازع فيها أحد ، إلى درجة أن حكامنا أنفسهم يستلهمون دائما من أفكاره » [١٠٠]. ولكن قاسم أمين يرى أن الوقت قد حان حيث «اكتملت تربية مصر السياسية»[١٠١]، ووصل المصريون إلى التدرب السياسى بما فيه الكفاية خلال الأعوام العشرة التالية على ١٨٨٣ م ، حان الوقت لأن يكون لمصر «جمعية» Chambre ، أى برلمان كما سيقال من بعد وقته ، لا تكون وحسب ذات صفة استشارية[١٠٢] (وهو حال مجلس شورى القوانين) . لقد أصبح من الضرورى ، فى رأى قاسم أمين عام ١٨٩٤ م ، أن يقوم مجلس ممثل للأمة حقا ، حتى ولو كان ذلك بشكل مخفف [١٠٣] .

رابعا : التدخل الأوروبى وسلوك الأوربيين

إذا كان قاسم أمين ، وهو المعتدل الذى يخشى من الاستبداد أعظم ما يخشى ، لا يستطيع إلا أن يكيل المديح للإنجليز ، وإن استطاع نادراً أن يعزف على نغمة الهمز واللمز بإزائهم[١٠٤]، إلا أنه يفرج عن مكنون نفسه على نحو أصرح كثيرا حين يتحدث عن الأوربيين فى مصر وعن أوروبا بوجه عام ، فيظهر أفضالهم ولكنه يعلن عن مساوئهم وينتقدهم جهاراً ، وما من شك فى أن قارئه المصرى كان يدخل الإنجليز بالطبيعة فى مجموعة الأوربيين[١٠٥]، ولكن يلوح لنا أنه ربما استطاع قاسم أمين دفع مثل هذا الظن عنه فى مثل هذا الموقف بالتفرقة الشهيرة التى كان يقيمها الإنجليز أنفسهم بين بلادهم و «أوروبا» حين يتحدثون عن شبه التعارض ما بين «الجزيرة»، أى بريطانيا العظمى ، و«القارة»، أى أوروبا التى يفصلها عنهم بحر المانش . المهم أنه يترك لنفسه العنان فى بيان المساوئ الأوروبية وانتقاد الأوربيين ، الذين كان كثير منهم فى مصر ومن جنسيات مختلفة، حتى الجنسية المالطية ضئيلة الشأن ، يزاولون الأعمال الحرة ويلتحقون بالوظائف الحكومية، بل وكانت فرنسا لا تزال تتطلع إلى مقاسمة إنجلترا النفوذ فى مصر ، حتى استسلمت لها تماما باتفاقية عام ١٩٠٤ م، بثمن إطلاق إنجلترا لها يدها فى مراكش . وإن خط الأساس هنا هو نفسه ذلك الذى لاحظناه من قبل عند حديث قاسم أمين عن محمد على وإسماعيل (وهو لا يذكر عباس الأول بالمرة ولا يكاد يتعرض لسعيد إلا بذكره بالاسم حوالى مرتين)[١٠٦]، وتوفيق وعباس الثانى وعرابى والثورة العرابية ، إلا وهو إظهار الأبيض حينا والأسود حينا آخر ، والجمع فى أماكن متفرقة ما بين هجوم هنا واحترام هناك ، والإشارة إلى ما يدين وإلى ما يمكن تقديمه كدفاع أو تبرير حينا بعد حين . ولكن إذا كان قاسم أمين يمزج بين قطبى الإيجاب والسلب فى شأن كل هؤلاء ، فإنه يتخذ موقفا مختلفا بعض الشىء فى شأن أوروبا والأوربيين ، تماما كموقفه من الإنجليز ولكن من الناحية المضادة : فهو يمتدح أوروبا والأوربيين حينا ولكنه

يشدد كثيراُ وتكراراً فى الهجوم عليهم وانتقادهم وبيان شرورهم ومساوئهم ، فالهجوم هنا هو الأبرز كثيراً وبما لا يقاس، تماما ، وفى المقابل ، حينما رأيناه يمتدح الإنجليز والاحتلال وأعماله واللورد دوفرين واللورد كرومر على طول الخط ، ولا يكاد يلمح بما قد يؤخذ عليهم إلا نادرا وعلى نحو غير مباشر ويكاد أن يكون غير مكشوف .

وللتدليل على هذه القضية ، قضية التأرجح ما بين التوقير والإدانة ، وهى العمود الفقرى فى هذا البحث حول مواقف قاسم أمين من أحداث عصره وشخوصه وعوامله ، فإننا نشير إلى ما يلى من مواقفه بشأن أوروبا والأوربيين :

١ - منذ الصفحة الثانية من مقدمة أول كتبه على الإطلاق ، وهو كتاب «المصريون» بالفرنسية ، ينص قاسم أمين على اتباعه للخط الذى أشرنا إليه ، وهو بهذا يؤيد تفسيرنا بلسانه ، كما أنه يقدم التبرير الموضوعى له: «إننى أطلب العفو من أصدقائى الأوربيين إذا كنت قد وجهت اتهامات إلى أوروبا ، لأننى أؤكد لهم أن هذا لا ينقص من حبى لهم شيئا . ولكن كان من الواجب على أن أقارن بين العادات وأن أبرز المزايا والمثالب . وإننى لأرجوهم ،على كل حال، ألا يحرمونى من الاعتقاد فى حسن نيتى المطلق ، وان يقتنعوا بأننى ما كتبت شيئاً إلا ما كنت واثقا منه تمام الوثوق»[١٠٧]. إن الذى يتكلم هنا إنما هو القاضى قاسم أمين ، حيث إن ما يفعله بتتبع كل عناصر الموضوع المعين الذى يبحث فيه فى كل مرة ، إنما هو امتداد لعمله القضائى الذى يفرض عليه أن ينظر فى كل الوقائع على السواء ، وأن يعتبر فى أقوال الاهتمام وفى أقوال الدفاع والشهود جميعا على السواء ، وأن «يزن» اعتبارات التأييد والمعارضة ، ولا يصدر حكما إلا بالإشارة إلى كل الاعتبارات ودون إهمال لشىء ، ولكن حكمه الذى سيميل إلى هذا الجانب أو ذاك إنما يكون تعبيراً عن «اقتناعه» فى اللحظة المعينة . هذا عمل القاضى ، ويطبقه قاسم أمين فى مجمل كتاباته ، ولكن مع

اختلاف بسيط: وهو أنه عند حديثه عن المسائل التاريخية التى تعرض لها ، فإنه يعبر عما هو «مقتنع» به سواء تحدث بالإيجاب والتأييد أو بالسلب والإدانة ، ويكون عرض الجانبين معا هو عمل المؤرخ «الموضوعى»، والذى يختلف موقفه هنا عن موقف القاضى .

٢- فى نفس الوقت الذى ينعى فيه قاسم أمين على أوروبا وتأثيرها أنها توصلت إلى «سيطرة حقيقية» على مصر فى عصر إسماعيل ، وأنه لا شئ يحدث من جانب المسئولين المصريين الخاضعين إلا بأوامر تأتى من وزارات الخارجية (والمستعمرات) فى لندن وباريس وبرلين ، إلا أنه يسارع إلى القول : «ولا يوجد من يفكر للحظة فى لومهم على هذا»[١٠٨] ، أى لوم الأوربيين على سعيهم نحو السيطرة على البلاد الأخرى ومنها مصر[١٠٩] ، مشيراً بذلك ضمنيا إلى أن الاتجاه نحو السيطرة أمر طبيعى عند الأقوياء ، خاصة وأن فكرة «السلطة تحب أن تتوسع» كانت موجودة فى الفكر السياسى الأوروبى فى عصر قاسم أمين .

٣ - يشير قاسم أمين إلى أن الغرب هو المنافس و «المزاحم»، تبعاً لقانون داروين : «قانون التزاحم فى الحياة»، على ما يشير ، ولكنه سرعان ما يقول على الفور : «وإن على الأمة المصرية أن تتعلم من الغرب ، وأن تأخذ فى الأعمال مآخذهم»[١١٠].

٤- عند تعداد عناصر المجتمع المصرى وأدوارها فيه ، يأتى فى النهاية إلى المقيمين الأوربيين الذين يقول عنهم حرفيا : «وأخيرا يأتى الأوربيون ، وفى شأنهم هناك الكثير من الخير ليقال عنهم ، كما أن هناك كثيراً من الشر ليقال عنهم أيضاً»[١١١]. ونجد هنا المصداق الدقيق الحاسم «لخط الأساس» الذى أشرنا إليه فى بداية هذا القسم من حديثنا ، حيث يعنى كلام قاسم أمين أن الأوربيين أنتجوا كثيراً من الخير وكثيراً من الشر كذلك ، ولكنه يميل إلى جانب

الإدانة أكثر ، على نحو ما قدمنا فى مقدمة هذا القسم ، لكى يقول على الفور : «ومن المؤسف أن الأوربيين الذين انتفعت مصر بهم هم فى عدد قليل جداً»[١١٢].

٥ - من المعروف أن قاسم أمين يدعو إلى تقليد أوروبا فى كل شأن ، وهذا أمر حسن فى نظره ، ولكن هاهو يثبت أنه يدرك أن نفس هذا الأمر الحسن ربما تكون له نتائج سيئة :

«طرقت ديارنا حوادث وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ووجدت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة . ومال ذلك بالجمهور الأغلب منا إلى تقليدهم فى ظواهر عوائدهم خصوصاً إن كان ذلك إرضاء لشهوة أو إطلاقاً من قيد فكان من ذلك أن كثيراً من علیائنا ، تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحوا لهن فى الخروج إلى المتنزهات وحضور التياترات ونحو ذلك وقلدهن فى ذلك كثير مما يليهن وعرض من هذه الحالة بعض فساد فى الأخلاق . تلك حالة طرأت للأسباب التى تقدمت وتبعها من العواقب ما بيناه . ولكن ليس من مصلحتنا بل ولا من المستطاع لنا محو هذه الحالة والرجوع إلى تغليظ الحجاب . بل صار من متممات شؤوننا أن نحافظ عليها ونتقى تلك المضار التى نشأت عنها ، وذلك هو ما نستطيعه أيضاً ، أما أنه ليس من مصلحتنا أن نمحو هذه الحالة فلما قدمناه فى مضار الحجاب على الوجه المعروف . وأما أننا لا نستطيع ذلك فلأن أسباب هذه الحالة مما فصلناه سابقاً لا تزال موجودة ، وهى تزداد بمرور الزمان رغماً عنا» [١١٣].

٦ - وهو إذ يدعو إلى تقليد المدنية الأوربية ، لتقدمها وقوتها ، إلا أنه تأتى عليه لحظة يشك فيها بالكلية من حيث كونها مدنية ، وذلك على أثر حديثه عن عداء الأوربيين للمصريين ، هؤلاء المصريون الذين «يحبون أوروبا بإخلاص وصدق»[١١٤] ، فيقول فى مرارة مخلصة : «وما فائدة المدنية إذا لم تنته إلى تكوين بشر خيريين[١١٥]؟» ، فهو يثبت صفة الشر للأوربيين ، ويتساءل بالتالى عن كون مدنيتهم مدنية حقاً [١١٦].

٧ - وبالرغم من كل حديثة المتكرر المنوع عن إساءات الأوربيين إلى مصر والمصريين ، إلا أنه لا يسعه أن ينكر أن منهم من كان كريماً نبيلاً خدوماً نافعاً وبالأخص على مستوى الأفكار التى ساهمت فى «صحوة (réveil) مصر»، «أفكار اجتماعية وسياسية وفلسفية وعلمية» [١١٧] ، وربما يقصد هنا «كلوت بك»و «سان سيمون» وأمثالهما فى عصر محمد على .

ونأتى الآن إلى تفاصيل إشارات قاسم أمين إلى مساوئ سلوك الأوربيين فى مصر. وهو يصعد إلى أول حضور أوروبى منظم فى مصر، أى الحملة الفرنسية على مصر، حين يقول، بما يشبه الكاريكاتير الساخر، على لسان أحد الموظفين المصريين الذين يتملقون جميع القوى واحدة بعد أخرى، ومعبراً عن ذلك الموظف المنافق الذى يشير إلى سلوك الفرنسيين إبان الحملة، بما يعنى أن المصريين، ومنهم قاسم أمين، لا ينسون ذلك: «أنا أعتبر من حسن الحظ لبلادى أن فرنسا أحجمت عن الدخول فى مصر، وأن الأمة التى احتلت وطنى العزيز هى الأمة الإنكليزية العظيمة الشأن، لأننى لا أنسى أبداً ما فعله الفرنسيون فى مصر عندما احتلها بونابرت»[١١٨]. ويصرح قاسم أمين بما يعتبره واقعة حاسمة، مسمياً الأوربيين هذه المرة «بالمسيحيين» على نحو ما كان يفعل أهل العصر، أو «بالنصارى» فيقول فى كتابه الفرنسى: «أو لم يسمع الدوق داركور أن عدداً عظيماً من الثروات التى حصلها المسيحيون إنما تم تحصيلها بأشد الطرق إمعاناً فى الإجرام ؟»[١١٩]. ويقول فى نفس الموضوع: «إن معظم الأوربيين لاهم لهم إلا الإثراء بأسرع ما يمكن، ثم ترك البلاد فور أن يتم لهم ذلك »[١٢٠].

والأوربيون هم أيضاً المسئولون عن إدخال مظاهر الفساد المختلفة فى مصر، وإذا كان قاسم أمين لا يتحدث فى صراحة عن إدخال الخمور وتنظيم الدعارة فى مصر[١٢١]، فإنه، على الأقل، وبعد الإشارة إلى صفات الأمانة والكرم وحب الخير ، يقول :

« إننى أعرف ، ويا للأسف أن كل هذه المشاعر الجميلة فى طريقها إلى أن تنقرض [فى بلادنا] :فحيثما يدخل الأوروبى ، فإنه يطردها على نحو فظ»[١٢٢]. ويضيف بعد سطور عن شهادة أوربيين كتبوا عن تركيا : «إنهم يقولون تحديداً أن المسيحيين هم الذين أفسدوا المسلمين»[١٢٣]، ليعود إلى حالة مصر مضيفاً على الفور : «وهذا نفسه هو رأى كثير من الأوربيين من أصدقائى : فإن من أدخل الرذيلة بين المسلمين إنما هم النصابون والمزيفون ورجال العصابات والمقرضون بالربا والمبتزون عن طريق التهديد بالتشهير وأصحاب الخمارات والملاهى الليلية وكل هؤلاء الأفاقين الذين نجدهم فى صفوف المشارقة وأحياناً بين الأوربيين . وما تعلم المسلمون أن يكذبوا وأن يزوروا وأن يسرقوا إلا من أجل حماية أموالهم وأملاكهم وحياتهم من اعتداءات هؤلاء» [١٢٤] . ونفس أمثال هذه الفئات هم من تحميهم الامتيازات القنصلية ، فيقول قاسم أمين فى نص قوى : «إن القنصليات تعتبر ممالك مستقلة حقيقية فى بلادنا : فسلطانها لا يقتصر وحسب على أصحاب جنسياتها ، بل يمتد ليشمل عدداً كبيراً من الرعايا المصريين أو الأتراك تقوم القنصليات بحمايتهم . وهذه الفئة كلها من أهل البلاد ، والتى تضع نفسها فوق نفوذ حكومتنا ، توضع ، من حيث كل أمر ومن شتى الجوانب ، تحت السلطة المباشرة للقنصليات التى يتبعونها ، وهذا بفضل قوة تعسفية. إن مصر تحمى حياتهم وأموالهم وممتلكاتهم ... ولكنها ليس لها الحق فى أن تطلب إلى نفس هؤلاء القناصل أن يحترموا قوانينها، بل إنه لمحرم عليها أن تطلب إلى سارق أو قاتل أن يحاسب عن أفعاله»[١٢٥].

وإذا أتينا الآن إلى الأوربيين من غير المفسدين والمجرمين والباحثين عن الثروات السريعة ، فإن قاسم أمين يلاحظ أن كل واحد منهم يقوم بأداء واجبات عمله وحسب ، ولا يفعل شيئاً فوق ذلك ، كما أن «كثيراً منهم فى مستوى أقل من المستوى المطلوب لأداء عمله» ، «ولا يعرف عنهم اهتمام بحركة علمية أو أدبية» يقومون بها فى مصر [١٢٦]. ولا يقتصر الأمر على نهب الثروات والإفساد

والإجرام وعدم أداء الأعمال بالأمانة الكافية والاهتمام والواجب ، بل إن مشاعر الأوربيين بصفة عامة تجاه الإسلام والمصريين مشاعر سلبية وعدائية تتسم بالتحيز[١٢٧]، وتفتقد إلى النزاهة واستقامة الحكم والحس والأخلاق. ومن أبرز اتهامات الأوربيين للإسلام أنه يسمح بنظام الرق »، وبالإضافة إلى رد قاسم أمين بأنه فى كل الأوقات كان استغلال الحكام للفلاحين على نحو فظيع، فإن الشريعة الإسلامية لم تعترف بعدم المساواة فى أوضاع الأفراد[١٢٨]، وأن ما يهمه أن يبين سوء نية الأوربيين حين يطلقون مثل هذا الاتهام ، وينسون ، ومنهم الدوق الفرنسى داركور، أن الرجال فى فرنسا مثلاً كانوا إلى وقت قريب أحياناً مربوطين إلى الأرض التى يزرعونها ، وهو نوع من الرق ؟ وألم يكن السادة الإقطاعيون فيها يستفيدون من قوانين شديدة الإجحاف ؟[١٢٩]. إن الإسلام ، فيما يقول قاسم أمين، لم يكن يسمح بنظام الرق إلا فى حق من أخذ فى الحرب أسيراً [١٣٠]، وهذا نفسه هو النظام الذى كان متعارفاً عليه عند الرومان والذى دافع عنه الخطيب والكاتب الفرنسى الشهير «بوسويه» (١٦٢٧- ١٧٠٤ م)، والذى قامت كل البلاد المسيحية بتطبيقه على الجنس الأسود فى أفريقيا، بعد ما كانت قد وضعت للبيض أنفسهم نظام القنانة، أى عبودية المزارع للأرض التى يفلحها فلا يستطيع الفكاك منها[١٣١]. وإذا كان الأوربيون لا ينفكون يتهمون عامة المسلمين بالجهل وما شابهه ، فهل ينسون أن عامتهم «هم فى أخلاقهم الشخصية أشد فساداً من عامتنا فى أخلاقها»؟[١٣٢].

وفيما يخص المصريين بصفة خاصة ، فإن الأوربيين يكنون لهم شعوراً بالعداوة وسوء النية والرغبة فى الإيذاء (malveillance) على نحو دائم كلى منهجى [١٣٣] (systématique)، بل إنه لشعور بالحقد الدفين التلقائى بغير تفكير، وإذا كان يوجد عند المصريين ما يشابهه بإزاء الأوربيين ، فإن درجته عندهم أضعف بكثير عند هؤلاء ، كما يسهل تبريرها [١٣٤] (لأن أوروبا هى التى

تغزو مصر وليس العكس) . إن أوروبا والتدخل الأوروبى لهما الخطر الأعظم على مصر . يقول : «إن مصر أمامها عقبة رهيبة (فى وجه النهضة والتقدم) : إنها أوروبا[١٣٥]. لقد أنزلت بمصر شراً كبيراً والعدل يقضى بأن من واجبها والتزامها إصلاح ذلك والتعويض عنه[١٣٦] ، حيث عانى المصريون كثيراً ولا يزالون يعانون من جراء أفعال أوروبا فى مصر [١٣٧] ، خاصة وأن أوروبا تكبل حركتهم بقيود ثقيلة»[١٣٨] .

أما عن التدخل الأوروبى ، فإن أوروبا تتخذ مبدأ لها أن المدفع ، أى القوة الحربية ، هى الفيصل فى الصراعات الدولية ، وهذا أمر يدعو إلى الرثاء[١٣٩]. إن الحضارة الأوروبية تجتاح كل مكان ، وتظهر على مظهر الغزو الذى يصعب مقاومته [١٤٠]، وتبدو أوروبا وهى «مسلحة حتى الأسنان»[١٤١]، وهذا وصف تفصيلى دقيق جامع بقلم قاسم أمين عالماً اجتماعياً مكتمل المعرفة قادراً على النظرة التركيبية الشمولية ، لوقائع التدخل الأوروبى فى كل مكان من العالم ، أو ما سيسمى «بالاستعمار» بالمعنى السيئ للكلمة ، لا بالمعنى الحرفى الذى يدل على إدخال العمران فى مكان ما، ويقدمه قاسم أمين بمناسبة حديثة عن الخطر العظيم الذى تتعرض له «الأمة المصرية اليوم» (أى فى عام ١٨٩٩ وما قبله بطبيعة الحال) ، والتى يقول إنها «لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن . فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر إلا وطئه بقدمه . وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة ، ولم يدع وسيلة من الوسائل إلا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وإن أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين . فإنه إنما يسعى إلى السعادة فى هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها وبأى طريقة يرى النجاح فيها . وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال

القوة لجأ إليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك أو يستعمر لأنه يجد ذلك متوفرا له فى أعماله العقلية واختراعاته العلمية . وإنما الذى يحمل الإنكليزى على أن يسكن الهند والفرنساوى الجزائر والروسى الصين والألمانى زنجبار هو حب المنفعة والرغبة فى تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها . فإن صادفوا أمة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا أهلها وأهلكوهم أو أجلوهم عن أرضهم كما حصل فى أمريكا وأستراليا وكما هو حاصل الآن فى أفريقيا حيث لا يرى أثر لأهالى البقاع التى احتلها الأوروباوى لأنهم خرجوا منها طوعا أو كرها . وإن صادفوا أمة كأمتنا دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشئ من النظامات الإبتدائية خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف . لكن لا يمضى زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة ، لأنهم أكثر مالا وعقلاً وعرفانا وقوة ، فيتقدمون كل يوم ، وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها» (١٤٢).

وفى مصر على التخصيص ، «ومنذ عصر سعيد ، أخذ النفوذ الأوروبى يتعاظم باستمرار ، حتى أصبح مع عهد إسماعيل سيطرة بالمعنى الحق للكلمة»(١٤٣) ، وحتى ظهر أن التدخل الأوروبى يستهدف أن «تصبح مصر ملكا للأوربيين»(١٤٤)، ولا يقف عند حد السهر على أمن الأوربيين فى مصر وازدهار مصالحهم ، وهو حق مشروع ، ولكن أوروبا لم تقف عند هذا الحد، بل إنها «خرقت العدالة واعتدت على الحقوق فى علاقاتها معنا»(١٤٥). «إن الوقت آت عن قريب يظهر فيه لأوروبا خطأ سياستها ، وسوف تعترف بذلك» (١٤٦). وينهى قاسم أمين فصل «أوروبا» فى كتاب «المصريون»، والذى استقينا منه معظم مادة هذا القسم من الحديث ، بالعودة إلى ما بدأه به من كون أوروبا «عقبة رهيبة» أمام تقدم مصر : «إننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من تقرير أن أوروبا كانت العقبة الأعظم والوحيدة التى أخذنا نكافح فى مواجهتها من أجل استعاده مكاننا

فى العالم»[١٤٧]. ويطالب أوروبا على الفور أن تكون متسقة فى أفعالها مع مبادئها وأن تكون ذات سلوك أخلاقى : «وبالرغم من كل ذلك ، فإنه لمما يليق بأوروبا القرن التاسع عشر ، وهو عصر العلم ، أن تكون لها سياسة واحدة ونفس السياسة : سياسة التقدم والأنوار فى كل شأن وللجميع»[١٤٨].

خاتمة

لعل هذه الدراسة أن تكون مغرية للمؤرخين السياسيين والعسكريين وغيرهم ، للنظر فى الكتابات ذات الطابع الاجتماعى ، فضلا عن الطابع السياسى ، التى نشرها كتاب مصريون نابهون عن عهود مختلفة فى تاريخ مصر الحديثة عاصروها ، باعتبارها مصادر غير مباشرة يستأنسون بها لمعرفة انعكاسات الأحداث على وعى أهل العصر المعين ، وكيف فسروها وحكموا عليها وبأيها اهتموا أكثر من غيرها . وما قمنا به هنا هو دراسة فى تأريخ جانب من الفكر السياسى والاجتماعى عند قاسم أمين ، ولكنها امتدت بالنظر ، ومن وراء آرائه الفكرية ، إلى طريقة تصويره لأبرز أحداث عصره ، وكيف فسرها وحكم عليها . صحيح أن قاسم أمين ليس مؤرخا بحسب قصده ، ولكن الاهتمام بعرض الوقائع الماضية ، بل بعرض «تاريخها» بالمعنى العام للكلمة ، أمر نجده عند أبرز الكتاب المصريين فى عصره ومن قبل عصره ، ومنهم رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وعبد الله النديم ومحمد فريد ، ربما لأنهم شعروا جميعا أن أجزاء «سلسلة» الأحداث متشابكة ومتصلة ومتكاملة . نعم ، إن قاسم أمين ليس مؤرخا محترفا ، على الأقل لعدم اعتماده المباشر على الوثائق الأصلية ، ولكن هذا لا ينفى عنه صفة المراجع التاريخى ، بل المؤرخ بالمعنى العام للكلمة الذى يدل على إثبات الوقائع وربطها وتفسيرها ، وهو ما تدل عليه كتاباته ، وبخاصة كتابه بالفرنسية «المصريون»، الذى نستطيع أن نقول ، مثلا عن فصله المعنون «القيمة العسكرية للمصريين» ، أى بسالتهم فى المعارك ، إنه من أوائل فصول التأريخ للجيش المصرى الحديث ، وربما أولها من حيث الاستيفاء والتنظيم وجلاء

النظرة ، وكذلك الحال فى معظم فصول هذا الكتاب (الذى اعتمدنا عليه كثيرا فى هذه الدراسة ، ونوجه إلى ضرورة العناية به لأنه لا يذكر عادة عند ذكر كتب قاسم أمين فى العروض العامة لفكره ، ونرجو أن نقوم بترجمته ترجمة دقيقة جديرة بأهميته وبتاريخ فكر قاسم أمين نفسه ، خاصة وأنه ليس فقط ردا على كتاب لسائح فرنسى بعنوان «مصر والمصريون» صدر عام ١٨٩٣ فى باريس ، بل إنه أيضا وأولا وبالذات عرض لأحوال مصر فى خلال القرن التاسع عشر الميلادى كله ، ومن سائر نواحى المجتمع والثقافة والأنشطة ، ومنها الحكومة والسياسة والجيش والعلاقة مع أوروبا وغير ذلك) .

ومن جهة أخرى - جهة مؤرخ الفكر - فإننا نرجو أن تنبه هذه الدراسة من يتعرضون لتأريخ الفكر المصرى الحديث . إن هذا الأمر يحتاج إلى خلفية وثيقة دقيقة شاملة عن أحوال كل عصر ومن سائر الجوانب ، وإلى أن فى كتابات الكتاب المصريين بعامة ، والمفكرين منهم بخاصة (وإن كان من يستحق منهم هذه الصفة الأخيرة فى خلال الأعوام المائتين الأخيرة قد لا يزيدون ، بل هم يقلون عن عدد أصابع اليد الواحدة ، ومنهم مؤكدا وحسما قاسم أمين) ، مادة خصبة لغير جانب الآراء الفكرية على وجه التحديد[١٤٩] ، وأخيرا إلى ضرورة الانتباه الدقيق والحصر الشامل لأقوال كل مفكر أو كاتب ، بحيث يقف مؤرخ الأفكار موقفا نقديا ، بل شاكا من حيث المبدأ ومنهجيا بإزاء كل «المشهورات» عن هذا أو ذاك ، ومنها بخصوص قاسم أمين أنه «محرر المرأة» أو «المصلح الاجتماعى» وحسب ، أو تلمذته المزعومة على جمال الدين الأفغانى وغير ذلك . إن وثائق مؤرخ الفكر هى الكتابات الثابتة نسبتها إلى المفكر أو الكاتب فعليه أن يلتزم بها ، بها كلها وبها وحدها .

لقد حاولنا فى هذه الدراسة أن نجمع ما قاله قاسم أمين عن أحداث عصره ، وحصرنا اهتمامنا فى أحداث مصر وحسب ، وحاولنا أن ننظر فيه بنظرة شمولية وتركيبية معا ، فظهر لنا أن مواقف قاسم أمين بإزاء كل من حكام

الأسرة العلوية الأربعة الذين اهتم بهم ، محمد على وإسماعيل وتوفيق وعباس الثانى ، وعرابى وأوروبا والأوروبيين فى مصر ، تميزت بازدواجية واضحة : فهو بإزاء كل جهة من هذه الجهات «ينفخ الحر والبارد معا»، أى يتعاطف فيدافع أو يمتدح ، أو يندد فيهاجم أو يدين ، وهو يفعل ذلك حينا بعد حين مع الخمسة الأوائل ، أى يتخذ موقفا إيجابيا ، أو ما يقرب من ذلك ، فى موضع ، ويتخذ الموقف السلبى فى موضع آخر من كتاباته، أما مع أوروبا ومع سلوك الأوروبيين فى مصر فإنه كثيرا ما يفعل الأمرين فى نفس المكان من نصوصه المختلفة . ويبقى الاحتلال الإنجليزى : وهنا لا نجد ، للوهلة الأولى، ازدواجية فى موقفه لأنه لا يقول كلمة سوء فى «الإصلاحات التى قام بها» (باللغة التى يحبها اللورد كرومر كما نجد هذه الكلمة على قلم قاسم أمين نفسه)[١٥٠] ، بل يمتدحه على طول الخط[١٥١]، لكن ليس باعتباره احتلالا وتدخلا غير شرعى ، وهو نادرا ما يستخدم الكلمات المشتقة من فعل «احتل» عند حديثه عن الإنجليز ، بل من حيث أن الإنجليز هم «أصحاب السلطة الفعلية»، كما سيقول المؤرخون وغيرهم، أو أصحاب «النفوذ الظاهر» كما يقول قاسم أمين نفسه[١٥٢] ، الذى يستخدم عادة كلمة «الإنجليز» و «إنجلترا» وحسب ، حينما لا يتحدث تحديدا ، وفى كتاب «المصريون»، عن اللورد دفروين واللورد جرانفيل واللورد كرومر . إذن ، فلا ازدواجية هنا ، إذا استثنينا إشارات نادرة ربما نلمح فيها «غمزاً ولمزاً» فى حق الإنجليز ، من مثل حديثه عن «الانتصار السهل للإنجليز» ١٨٨٢ م[١٥٣] ، وإشارته إلى أن هناك أسبابا كثيرة تدعوهم لأن يكونوا «أقل حيادا» حينما يتعلق الأمر بشأن ما حققه المصريون من تقدم وفرص مستقبل أفضل لهم[١٥٤]. ومع ذلك ، فإن الازدواجية تستمر القاعدة المستمرة لنظرة قاسم أمين إلى الجميع وبما فيهم الإنجليز ، وذلك حين نعتبر أن هجومه الحاد الشامل على التدخل الأوروبى فى مصر ، منسوبا إلى «أوروبا» على التعميم ، إنما ينطبق منطقيا وعلى الفور على الإنجليز هم أيضا. وهكذا، فإذا كان قاسم أمين لا يهاجم الإنجليز

من أمام ، فإنه يهاجمهم من خلف ، وبطريق غير مباشر ، مشابه لتكتيك «الالتفاف» فى الحرب ، وبمد حديثه المتكرر المفصل عن شنائع التدخل الأوروبى وسلوك الأوروبيين فى مصر .

أخيرا ، فإننا نشير إلى أن الازدواجية التى مارسها قاسم أمين فى شأن الحكم على الجميع ليست ازدواجية انفصال وتعارض و «انفصام» ، بل هى ازدواجية تكامل ، لأن «القاضى» قاسم أمين مقتنع بما يقول حين يمتدح وحين يهاجم ، حين يؤيد وحين يدين .

وقد حاولنا أن نتصور تبريرات ممكنة لمديح قاسم أمين فى أعمال الإنجليز فى مصر منذ تقرير اللورد دوفرين ١٨٨٣ م ، ولعل أهمها أنه كان يعتقد حقا ، وعن «اقتناع»، بأنها أعمال فى مصلحة مصر ، كما وأنها تتفق مع رؤاه هو عن «التقدم»، ولأن وجود السلطة الإنجليزية فى مصر مفيد للمصريين ، لأنها وحدها القادرة على إحباط محاولات العودة إلى «الاستبداد القديم» ، على يد عباس الثانى ، بينما كان توفيق لا يرفع إصبعا فى وجه الإنجليز حتى مات عام ١٨٩٢ م ، وأخيرا لأن «عدو عدوى صديقى» كما يقال أحيانا فى لغة السياسة وغيرها، و «لا ورد من غير شوك» . إن «اعتدال» قاسم أمين ربما كان تعبيرا عما يسمى أحيانا «بالواقعية» فى السياسة . ولكن هذا لا يلغى واقعة سلبية ، وهى أن قاسم أمين لا يذكر أى ذكر ولا يلمح أى تلميح إلى الإجراءات الماسة بحقوق مصر ومصالح المصريين والتى قامت بها سلطة الاحتلال والحكومة الإنجليزية ، سواء من الناحية السياسية أو فى الإدارة والقضاء وفى اللوائح المختلفة ، وفى الخصوص الزراعة والصناعة والتعليم ، وفى شأن قناة السويس والسودان ، ولا يذكر لمرة واحدة موقف فرنسا الأساسى ، الذى استمرت تعلنه من ١٨٨٢ إلى ١٩٠٤ م ، وهو أن الاحتلال البريطانى لمصر هو بغير سند من القانون الدولى .

إن قاسم أمين قاض بحكم التكوين المهنى والوظيفة[١٥٥]، وقد ألمحنا إلى تأثير هذا فى نظرته إلى الأحداث وأحكامه عليها ، وهو مفكر بالطبع، ولكنه رجل وطنى أيضا شديد الاعتزاز بمصر عظيم الاهتمام بمواطنيه المصريين[١٥٦]. كما ظهر لنا فى خلال هذه الدراسة أنه يمكن أن يعتبر أيضا «سياسيا» ، ليس فقط من حيث معارضته للاستبداد على طول الخط ، فإن هذا قد يكون من شأن «الفكر السياسى» فيه ، ولكن من حيث تصريحه المهم فى كتاب «المصريون»، والذى ننبه إليه هنا ربما للمرة الأولى ، حين يعتبر نفسه من أصحاب «الاعتدال» ، بل من «المعتدلين جداً»[١٥٧]، فى شأن طبيعة التكوين السياسى المصرى المأمول ، حيث يتحدث هكذا وهو فى صدد الكلام عن المطالبة بمجلس تمثيلى يمثل الأمة حقا وتكون له سلطات حقيقية، وأن مرحلة «مجلس شورى القوانين» الذى لا سلطان له بل هو هيئة استشارية وحسب ، قد اكتملت وينبغى تعديها . ألا يمكن اعتبار قاسم أمين، بهذا التصريح ، من أوائل المشيرين إلى «حزب جديد»[١٥٨] ، هو حزب المعتدلين بإزاء السلطة البريطانية[١٥٩]، ولكنهم المتشددون بإزاء سلطة الخديوى ؟ على كل حال ، فإن بعضا من أصدقاء قاسم أمين هم الذين سيأسسون «حزب الأمة»، ومن بعده «حزب الأحرار الدستوريين»، والذين كان صديقه أحمد لطفى السيد يود أن يسميهم «بالحريين» (لاحظ تسمية أحد الأحزاب الكبرى فى بريطانيا فى ذلك الوقت) . ولكن علينا أن نتحوط فى ضم قاسم أمين إلى زمرة هؤلاء دون تمييز ، لأن قاسم أمين ، ونحن على ذلك من الشاهدين ، وطنى مخلص كل الإخلاص بحسب رؤاه ، ومفكر أمين نزيه ، ومصرى يفكر لكل المصريين ، بينما سيكون مؤسسو «حزب الأمة» هم «أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد»، أى كبار ملاك الأراضى ، بتصريح أحمد لطفى السيد ، وهو نفسه الذى سيعلن صراحة: «الأوربيون هم أساتذتنا»، امتدادا للخط القائل «بتقليد أوروبا» كاستراتيجية لمصر ، فيكون صاحب أكبر تأثير سلبى فى رأينا على التعليم والفكر منذ ١٩٠٧م إلى ١٩٥٢ م[١٦٠].

الهوامش

(١) راجع الفصلين الثانى «النظرة العلمية عند قاسم أمين» والثالث «قاسم أمين عالما اجتماعيا» من كتابنا : «تجديد الفكر المصرى عند قاسم أمين»، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩ م .

(٢) من المصادفات العجيبة أننا وجدنا نفس هذا المعنى عند عالم الاجتماع الفرنسى الشهير إميل دور كايم (١٨٥٨-١٩١٧م) ، أثناء قراءة لكتاب جورج بالانديه ، «الانثروبولوجيا السياسية»، ترجمه عربية ، بيروت ، ١٩٩٠ م ، فى نفس فترة تحريرنا لهذا البحث ، حيث يقول دور كايم : «نحن مقتنعون ... بأنه سيأتى يوم لن يختلف فيه الفكر التاريخى عن الفكر الاجتماعى إلا بفروق دقيقة» (ص٣٧ من الكتاب المذكور) . ولا شك أن نص قاسم أمين أسبق زمنيا من نص دوركايم، الذى لن يأخذ اسمه طريقه إلى الشهرة إلا منذ عام ١٨٩٧ م ، أو بعدها . وفى هذا دليل جديد على نفاذ رؤية قاسم أمين ورسوخ قدمه كعالم اجتماعى .

(٣) «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ» ، طبعة المطبعة الجمالية بمصر ، دون تاريخ ، ص١٧-١٨ ، وهذا الكتاب يحوى مجموعة من المقالات من قسمين ، قسم بعنوان «أسباب ونتائج» والأخر بعنوان «أخلاق ومواعظ»، وكلها نشرها قاسم أمين بدون توقيع فى جريدة «المؤيد» ما بين عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٨ م وسوف نشير فى الهوامش إلى هذا الكتاب باسم « أسباب» اختصارا .

(٤) كتابنا المذكور ، « تجديد الفكر المصرى ... »، الفصل الرابع : « بداية حساسية جديدة» ، ص٢٢٥- ٢٥٧ .

(٥) نفسه ، ويقع الاقتباس فى ص ٢٤٠-٢٤١.

(٦) سنشير فى الهوامش إلى الطبعات الأصلية التى رجعنا إليها لكتابات قاسم ، وذلك عند أول مرة نذكر فيه الكتاب المعين ، ولم نرجع إلى طبعة بيروتية كانت منتشرة منذ أكثر من عقدين ، لافتقارها إلى خصائص الإخراج العلمى للنصوص . راجع مقالنا : «ليست الأعمال بالنيات فى مجال نشر تراث الفكر المصرى الحديث» ، مجلة « فصول »، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، المجلد الأول ، العدد الأول ، ١٩٨٠ م ، والمجموع فى كتابنا : «فى الفكر المصرى الحديث ، مجاولات فى إعادة التفسير »، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ م ، ص٢٣٩ - ٢٦٣ .

(٧) تحرير المرأة ، ص١-٣ ، وفيها يظهر تكرار استخدام ضمير «نحن» ، وكلمات «الأهل» و «الأمة» و«أمتنا». ونرجع هنا إلى الطبعة الأولى عام ١٨٩٩ م ، وهى موجودة حاليا بالأسواق فى طبعة مصورة (المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة) .

(٨) حول تطبيق مفهوم «الأمة» على مصر ، راجع دراستنا : «الأمة و الوطن والمواطن عند رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى» ، والمجموعة فى كتابنا المذكور : «فى الفكر المصرى الحديث ... » ، ص٥-٣٢ .

(٩) تحرير المرأة ، ص٧٦ وغيرها.

(١٠) المرأة الجديدة ، ص ١٣٤، ونشير إلى صفحات الطبعة الأولى ، عام ١٩٠٠ م ، والمصورة فى نشرة قام بها « المجلس الأعلى للثقافة » .

(١١) Les Egyptiens القاهرة ، ١٨٩٤ م .

(١٢) انظر مثلا «تحرير المرأة »، ص٨٧ حيث يجمع : «شعبه وملته ووطنه ودينه وحكومته» ، وقارن نفس المرجع ، ص٣ حول تعداد مقارب ، وانظر أيضا إلى مجمل كتاب قاسم أمين بالفرنسية Les Egyptiens ، وهو أول كتبه ، ١٨٩٤ م ، وأشرنا إليه فى المتن بعنوان «المصريون» ، وفى الهوامش باختصار : .Eg ، وبخاصة ص ٧٠-٧١ و ٢٤٢ حيث يظهر اصطلاحا nation وpeuple ، هنا وفى كل الكتاب تكرارا .

(١٣) .Eg ، ص٣٢ .

(١٤) نفسه ، ص ٢٨٨ - ٢٩٢ .

(١٥) فى معنى البعث والإحياء وتجديد القوى يستخدم قاسم أمين بالفرنسية كلمة Eg. 26 regeneration ، كما يستخدم كلمة réveil أى «يقظة»، Eg ، ص٣٥ ، وكلمة releve ، نفسه ، ص٢٧٦ ، أى «واقفة على قدميها» ، أى «ناهضة »، ويستخدم كلمة renaissance حرفيا : « إعادة الميلاد » فى وصف عصر محمد على ، نفسه ، ص ٨٢ وراجع . Eg ، ص٤٥-٤٦ ، حول استثناء مصر من بين المجتمعات الإسلامية .

(١٦) المرأة الجديدة ، ص١٣٣ ١٣٤ .

(١٧) .Eg ص ٤-٦ .

(١٨) حدث مثلا أن أثبت قاسم أمين فى مذكراته الخاصة كلمة كتبتها أم من قدماء المصرين على قبر ابنها ، والأغلب أنه عثر عليها فى كتاب فرنسى أو آخر (« كلمات» ، ص٣٦) . وقد نشرت تلك المذكرات بذلك العنوان إدارة جريدة «الجريدة »، التى كان أحمد لطفى السيد رئيس تحريرها، عام ١٩٠٨ م ، وسوف نرجع إلى طبعة المطبعة الجمالية بمصر لها ، عام ١٩١٣ م . ومن الطريف أن قاسم أمين يتحدث عن «الإله ممنون» (.Eg، ص ٢٩٣) ، بينما الإشارة إلى التمثالين الشهيرين فى الأقصر ، واللذين يمثلان فى الواقع الملك أمنحتب الثالث .

(١٩) .Eg ، ص ٢٤٠ .

(٢٠) أسباب ، ص٨٠ .

(٢١) المرأة الجديدة ، ص ث .

(٢٢) تحرير المرأة ، ص٩ .

(٢٣) المرأة الجديدة ، ص١

(٢٤) نفسه ، ص ٢٠-٢١ .

(٢٥) نفسه ، ص ٢٤ .

(٢٦) ولا يزال هذا الإهمال موجوداً إلى اليوم ، مع الأسف الشديد .

(٢٧) .Eg، ص ٣١ .

(٢٨) نفسه ، ص ٣١-٣٣.

(٢٩) نفسه ، ص ٨٢ .

(٣٠) تحرير المرأة، ص ١٢٠-١٢١ .

(٣١) نفسه ، ص ١٣-١٤.

(٣٢) راجع مثلا .Eg ، ص ٨٢ وما بعدها .

(٣٣) تحرير المرأة ، ص ١٥٠.

(٣٤) نفسه ، ص ١٦٠ ، و المرأة الجديدة ، ص د .

(٣٥) .Eg ، ص ٨٧ ، و « تحرير المرأة» ، ص ١١٤.

(٣٦) تحرير المرأة ، ص ١١٤ .

(٣٧) مثلا : .Eg ، ص ٢٥٣ ، «تحرير المرأة» ، ص ١٠٣ .

(٣٨) .Eg ، ص ٨٢ ، وقارن مثلا ص ٢٨٩ . ولكننا رأينا أنه يصف عصر محمد على نفسه «بالنهضة»، راجع هامش (١٥) مما سبق .

(٣٩) ولكنه يذكر مثلا دخول نابليون إلى القاهرة .Eg ، ص ٥١ . ونلاحظ أنه يقع هنا فى خطأ منتشر، لأن «نابليون » لا يستخدم إلا بعد أن أصبح بونابرت إمبراطورا على فرنسا ، وهو يعود فى «أسباب» ص ٧٣، لكى يستخدم الاسم الصحيح : « بونابرت».

(٤٠) أسباب ، ص ٨٢ .

(٤١) ومع ذلك ، فهو يدينهم بالاسم (محمد على أو إسماعيل) فى مذكراته الشخصية ، « كلمات »، ص ٤٨ .

(٤٢) مثلا ، Eg ، ص ٥٢

(٤٣) مثلا .Eg ، ص ٨٣ - ٨٦.

(٤٤) مثلا، تحرير المرأة، ص ١٥.

(٤٥) ولكنه فى .Eg ، ص ٢٣ ، يتحدث عن « الزمان الماضى» ، ويذكر بالاسم كلاً من محمد على، سعيد و إسماعيل ، فى إطار سلبي.

(٤٦) نفسه ، ص ٨٢-٨٦.

(٤٧) نفسه، ص ٨٦-٨٧.

(٤٨) راجع ما سنقوله بعد قليل حول الجيش المصرى .

(٤٩) ونجد نفس التسمية فى (.Eg ص ٢٨٦) ، فى إطار إيجابى بالنسبة إلى عرابى كما فى النص الذى سيلى فى المتن ، و راجع أيضا «أسباب»، ص٨١ ، فى مقال «الموظف السياسى».

(٥٠) .Eg ، ص ٣٣ .

(٥١) إذا كان قاسم أمين هنا يهاجم الأتراك ، فإنه يمتدحهم فى مكان آخر ومن جهة مختلفة ، «كلمات»، ص ٢٥. و فى هذا دليل على خط «الازدواجية» الذى أشرنا إليه منذ قليل وسنعود إليه. و نشير هنا إلى أن قاسم أمين ، الذى لا يتحدث عن نفسه إلا باعتباره مصريا قحا وحسب ، ليظهر أنبل وأصدق بكثير من بعض من كتبوا عنه و حاولوا إبراز «كرديته» حينا أو «تركيته» حينا آخر، ناسين أمه الصعيدية و ثقافته و تصويره لنفسه مصريا و كفى.

(٥٢) راجع (.Eg ص ٣٢-٣٣) ، أى ما يسبق النص المترجم من سطور.

(٥٣) .Eg ، ص ٥٦. و المقصود «بالقيمة» فى عنوان الفصل البسالة و الشجاعة و القدرة.

(٥٤) نفسه ، ص ٥٦-٥٧. و نظن أننا قد أشرنا هنا إلى كل المواضع التى يرد فيها ذكر عرابى عند قاسم أمين، بالإضافة إلى «أسباب»، ص٨١ . و «الدوق دار كور» هو مؤلف الكتاب الذى يرد عليه.

قاسم أمين فى «المصريون».

(٥٥) نفسه، ص ٨٦.

(٥٦) نفسه ، ص ٨٦-٨٨ .

(٥٧) نفسه، ص ٨٩-٩٥ .

(٥٨) نفسه، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٥٩) تحرير المرأة ، ص ١١٢.

(٦٠) نفسه، ص ١١٨.

(٦١) كلمات، ص ٥٠.

(٦٢) لاحظ تعداد قاسم أمين لعناصر «حقوق الإنسان» تكرارا.

(٦٣) كلمات ، ص٤٨ .

(٦٤) المرأة الجديدة ، ص٢١.

(٦٥) نفسه، ص ٨٨.

(٦٦) «أسباب» ، ص٧١.

(٦٧) قارن مثلا ، محمد صبري، «تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث»، ص٢٢٩-٢٣٦ .

(٦٨) قارن مثلا (Eg.) ، ص ٢٩٢.

(٦٩) راجع نص «المصريين شديدى الاعتدال ، و أنا منهم» ، فى Eg. ، ص ٢٩٦.

(٧٠) يستخدم قاسم أمين تعبير «النفوذ الظاهر» الذى للإنجليز فى مصر، فى «أسباب» ص٢٣-٢٤.

(٧١) maitresse effective مقابل «السلطة الشرعية» الاسمية التى للخديوي.

(٧٢) Eg. ، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٧٣) نفسه، ص ٢٩٢.

(٧٤) نفسه، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٧٥) نفسه ، ص ٢٩٢-٢٩٥.

(٧٦) نفسه، ص ٢٩٦، وكان قد وصف ذلك التقرير «بعظيم السمو» (si élevé)، نفسه، ص٢٩٢.

(٧٧) تحرير المرأة ، ص١٧.

(٧٨) راجع Eg. ، ص ١٤-١٦ و ٧٠.

(٧٩) «أسباب»، ص ٦٤. .

(٨٠) ص ٢٩٢، Eg. و التعبير المستخدم هو loyauté ويعنى أيضا الشرف والاستقامة والصدق.

(٨١) نفسه، ص ٦٨.

(٨٢) نفسه ، ص ٨٦.

(٨٣) نفسه ، ص ٧٠.

(٨٤) نفسه، ص ٨٦-٨٧.

(٨٥) نفسه، ص ٢٨٩-٢٩٠، و المقصود «باليوم» عام ١٨٩٤م.

(٨٦) نفسه، ص ١٦-١٧.

(٨٧) انظر مثلا ، تحرير المرأة ، ص ١١٤ ، و المرأة الجديدة، ص ٨٨.

(٨٨) انظر على سبيل المثال، .Eg ، ٥٤ ص ١٦ ، ٨٥ و غيرهما .

(٨٩) كلمات ، ص ٤٣-٤٤.

(٩٠) نفسه، ص ٥٠.

(٩١) .Eg ، ص ٢٩٤-٢٩٨.

(٩٢) نفسه، ص ٨٨-٨٩ و ٢٩٦-٢٩٨.

(٩٣) راجع عموما فصل المصري فى .Eg ، ص ١١-٢٧ .

(٩٤) .Eg ، ص ٢٣ و ٢٩٣.

(٩٥) نفسه، ص٢٨٦.

(٩٦) نفسه، ص٢٣.

(٩٧) نفسه، ص ٢٣ و ٢٨٦.

(٩٨) .Eg ، ص ٢٨٦ ، و ربما يوجد هنا تلميح إلى إعادة توزيع الثروة لصالح البعض.

(٩٩) نفسه ، ص ٨٧-٨٨.

(١٠٠) نفسه، ص ٢٩٦.

(١٠١) نفسه ، ص٢٩٩ ، و لكن قارن فيه أيضا موقفا مخففا بعض الشيء ، ص٦.

(١٠٢) نفسه، ص٢٩٦.

(١٠٣) .Eg ص ٨٩. يقول النص :

Une veritable representation nationale, meme mitigée.

و ربما يعنى التخفيف إما ألا تكون سلطاته مطلقة، و إما أن يكون فيه عدد من المعينين إلى جوار المنتخبين.

(١٠٤) مثل إشارته الحذرة إلى إمكان أن يكونوا، و اللورد كرومر نفسه، منحازين وغير محايدين فى كلامهم عن مصر ، فى .Eg ، ص ٢٧٠ . وانظر أيضا أسباب ، ص ٨٢ ، حيث إشارة غير مباشرة إلى كراهية البعض لهم .

(١٠٥) وقاسم أمين نفسه يدخلهم على اليقين فى فئة «الأمم الغربية»، كما فى «تحرير المرأة» ، ص ١١٤.

(١٠٦) . Eg ، ص ٢٣و ٢٧٦.

(١٠٧) نفسه ، ص٦-٧.

(١٠٨) نفسه ، ص٢٧٦.

(١٠٩) ويقول على نحو صريح فى .Eg ، ص٢٧٧: «ما أبعدنى عن التفكير فى لوم أوروبا على عملها باستمرار على حماية الأوربيين فى مصر»، بعد أن كان قد قال فى الجملة السابقة لهذا على الفور:«إن أوروبا قد استخدمت دائما هذا التفوق ضد مصر» ، والإشارة إلى ما تحدث عنه حول «السيطرة الحقيقية».

(١١٠) تحرير المرأة، ص ١١٥-١١٧. و نلاحظ أنه ينسب اختيار « تقليد أوروبا» إلى «مصر» نفسها، ثم يقول عن نفسه فيما يشبه التراجع التكتيكى :«و لكن ليس علي أن احدد موقفى فى شأن مدى جدارة هذا الاختيار من جانبها» (أى مصر) (.Eg) ، ص ٤٦ .

(١١١) .Eg ، ص ٣٤ .
(١١٢) نفسه ، ص ٣٤-٣٥ ، حرفيا : «هم نادرون» .
(١١٣) تحرير المرأة ، ص ١٠٢.
(١١٤) (.Eg) ص ٢٨٠.
(١١٥) نفسه، ص ٢٨١.
(١١٦) وكان قد تساءل، بعد الحديث عن اتجاه أوروبا نحو جعل «مصر للأوربيين» : «كل هذا ، هل يليق حقا بأناس متحضرين؟» ، .Eg ، ص٢٨٠.
(١١٧) نفسه، ص ٣٥-٣٦ .
(١١٨) أسباب ، ص ٧٣.
(١١٩) (.Eg) ص٢٩٣.
(١٢٠) نفسه، ص ٣٥. و لكنه يشير فى مكان آخر إلى أن جمع الثروة نوع من العلم «أسباب» ، ص ٣٢-٣٤ .
(١٢١) قارن ذكره السريع المحايد «لتنظيم الدعارة» ، فى (.Eg) ، ص ٢٧٨ .
(١٢٢) .Eg ص ١٩٨.
(١٢٣) نفسه، ص ١٩٩.
(١٢٤) نفس المكان و «الرذيلة» هنا بأوسع المعاني، أما «المشارقة» (Levantins) فيقصد بهم سكان شرقى البحر المتوسط من الرعية العثمانية .
(١٢٥) (.Eg) ص ٢٧٨-٢٧٧.
(١٢٦) نفسه، ص ٣٥.
(١٢٧) نفسه، ص ٧١.
(١٢٨) نفسه، ص ٧١-٧٥.
(١٢٩) نفسه، ص ٢٧- ٢٦.
(١٣٠) نفسه، ص ٧١، كما يؤكد على فكرة المحافظة على الكرامة الإنسانية.
(١٣١) نفسه، ص ٧٠، و انظر أيضا ص ٧١-٧٢.
(١٣٢) المرأة الجديدة ، ص ١٩٦.
(١٣٣) .Eg، ص ٢٨٠.
(١٣٤) نفسه، ص ٢٨١
(١٣٥) نفسه، ص ٢٧٦.
(١٣٦) نفسه، ص ٢٨١.
(١٣٧) نفس المكان.
(١٣٨) .Eg، ص ٢٧٨-٢٧٩.
(١٣٩) نفسه، ص ٢٧٧.
(١٤٠) نفسه، ص ٤٦.
(١٤١) نفسه، ص ٢٤٤، والتعبير الفرنسى الأخير يعنى التسلح بكل أشكال السلاح.

(١٤٢) تحرير المرأة ، ص ١١٤-١١٦، و انظر أيضا إلى تعبير «مصر للمصريين» .

(١٤٣) .Eg ص ٢٧٦.

(١٤٤) نفسه، ص ٢٨٠، أو : «مصر للأوربيين»، والإشارة بالضد إلى تعبير «مصر للمصريين».

(١٤٥) نفسه، ص ٢٧٧.

(١٤٦) نفسه، ص ٢٨١.

(١٤٧) نفسه، ص ٢٨١-٢٨٢ ، لاحظ فعل «نكافح» .

(١٤٨) نفسه، ص ٢٨٢. والمقصود من الكلمات الأخيرة أن تطبق أوروبا نفس المبادئ والغايات على نفسها وعلى الأمم الأخرى. و «الأنوار» إشارة إلى مبادئ العقل و العلم و حقوق الإنسان.

(١٤٩) و هو ما حاولناه فى كتابنا : « تجديد الفكر المصرى عند قاسم أمين» ، السابقة الإشارة إليه.

(١٥٠) راجع (.Eg) ، ص ٢٩٦.

(١٥١) و ذلك بشكل مباشر صريح فى كتاب «المصريون»، وهو بالفرنسية، وبطريق غير مباشر فى «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ، و هما بالعربية.

(١٥٢) أسباب ، ص ٢٣.

(١٥٣) (.Eg) ص ٥٦.

(١٥٤) نفسه ، ص ٢٧٠.

(١٥٥) سبق أن أشرنا إلى أهمية تجميع أقضيته بشكل شامل منظم.

(١٥٦) انظر مثلا عن الوطنية ، «كلمات» ، ص٣٨.

(١٥٧) .Eg، ص٢٩٦.

(١٥٨) من المهم تتبع مرحلة النشاط العام لقاسم أمين ، منذ حوالى ١٩٠٥م، و كان قد قام بتأسيس «الجمعية الخيرية الإسلامية» فى درب الجمامیز بالقاهرة ، و تحمس منذ أكتوبر ١٩٠٦م لفكرة إنشاء الجامعة الأهلية ، و عمل حثيثا من أجل هذا الهدف منذ ذلك الوقت، و له عنه كلمة ألقيت بالمنوفية فى ١٥ أبريل ١٩٠٨م ، وهى سنة إنشاء الجامعة ، و كان فى المساء الذى يسبق وفاته يلقى خطابا فى «نادى المعلمين» (٢٢ أبريل ١٩٠٨م) .

(١٥٩) لقاسم أمين فى مذكراته الخاصة كلمة عن يوم وفاة مصطفى كامل (كلمات ، ص ٥٥-٥٦) ، ويبدو أن أحدا لم يلاحظ أنه لم يتحدث عن مصطفى كامل نفسه فى هذه السطور و لا بكلمة واحدة ، بل كان عن ظاهرة وحدة الشعور أو الشعور الوطنى المصرى عند كل المصريين.

(١٦٠) راجع دراستنا عن «الفكر المصرى فى مواجهة الغرب»، فى كتاب : فى الفكر المصرى الحديث.... ، ص ١٦١-١٨٥، و فصل أحمد لطفى السيد فى كتابنا : «تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر الحديثة » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة «تاريخ المصريين» ، ٢٠٠٤م .

مصادر الدراسة وقراءات منوعة

أولا : المصادر من كتابات قاسم أمين المنشورة :

Les Egyptiens , Le Caire1894.

تحرير المرأة ، القاهرة ، ١٨٩٩ م .

المرأة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٠٠ م .

كلمات ، طبعة المطبعة الجمالية بمصر ، ١٩١٣ م .

أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ ، طبعة المطبعة الجمالية بمصر ، بدون تاريخ .

ثانيا : قراءات منوعة

(لم يتم الالتفات إلى الجانب الذى تناولته هذه الدراسة من فكر قاسم أمين ، اللهم إلا بأحاديث عامة شبه خطابية عن «وطنيته» ، ولذا فإننا نذكر بعضاً من قراءات منوعة حول قاسم أمين بصفة عامة ، وهى لا تضم بطبيعة الحال العدد الكبير من الكتابات حول تاريخ مصر الحديث) :

أحمد أمين ، زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

أحمد خاكى ، قاسم أمين ، القاهرة ، ١٩٤٤م .

جورجى زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، القاهرة ، ١٩٢٢ م .

زينب الخضيرى ، تقديم كتاب «المرأة الجديدة» فى الطبعة المصورة من الطبعة الأولى للمجلس الأعلى للثقافة ، بالقاهرة ، بدون تاريخ .

عزت قرنى ، تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة «تاريخ المصريين» ، ٢٠٠٤ م .

عزت قرنى ، تجديد الفكر المصرى عند قاسم أمين ، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩ م.

عزت قرنى ، فى الفكر المصرى الحديث ، محاولات فى إعادة التفسير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٩٥ م .

على الحديدى ، عبد الله النديم ، سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

ماهر حسن فهمى ، قاسم أمين ، سلسلة أعلام العرب، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

محمد حسين هيكل ، تراجم مصرية وغربية ، القاهرة ، ١٩٢٩ م .

محمد حسين هيكل ، فى أوقات الفراغ ، القاهرة ، دون تاريخ .